تصدير

منذ إنشاء مجلة «قصص» لم يكن لها في الأغلبية ترتيب تفاضلي لما يصدر فيها من آثار وقصص. وإذا كانت الاعتبارات الفنية كثيرا ما يعلن عنها لتعليل ترتيب المواد فانما ذلك نتيجة نفسيات سائدة وإنّيات بائدة تجعل المشرفين في حرج بين التقديم والتأخير.

وإذا كان لهذه المجلة منهج معيّن في اختيار النص الأول فإن أغلب ذلك - إذا حصل - يكون تبعا لمراعاة نفسية القرّاء الذين غالبا ما يتجهون - أو يبدأون - بالنصّ الأول في المجلة.

وإذا كانت المجلة ليست موجّهة إلى المختصين أو إلى نخبة معيّنة بل هي متجهة إلى الجماهير الواسعة ، لاسيما شداة الأدب أو شباب المطالعة ، فإنها كانت تختار - من ذلك الأغلب - مما يقصد به الصدارة في التصدير.

ومهما يكن فان هذا العدد ربّما نخالف فيه ما اعتدناه عندما نعمد - عن قصد - إلى اختيار قصّة معيّنة هي الأولى في الترتيب. هذه القصة هي «عروس الحلوى» صاحبتها أديبة ناشئة فعلا ، نجحت في مهرجان جريدة «الصدى » ، وقبلت - أخيرا - عضوا في اتحاد الكتاب التونسيين.

ونظرا لما يتوسّم في هذه الأديبة الناشئة من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عطاء أدبي رأت أسرة تحرير المجلة أن تعبّر لها عن هذا الأمل بنشر قصتها المذكورة حيث هي في هذا العدد لا على معنى أن يكون ذلك «حافزا» للمواصلة لأنه ما لم يكن متأصلا في الذات فقد لا يجدي فيه مثل هذه اللّفتة ، وإنما كان ذلك للتعبير ، والتهنئة على ما وصلت إليه وهي في بداية الطريق أملا منا في متابعة السعي واستمرارية العطاء والانتاج لا للوصول إلى الهدف ؛ لأن الهدف هو بمثابة الأفق كلّما أغراك على الوصول يجدّد فيك العزم على الدأب والمثابرة. كما أننا نرأب بالأديبة الناشئة أن يكون في هذا مدعاة إلى الغرور والعجب ، فتلك آفة ما أصابت قريحة إلاّ جمّدتها أو تركتها تدور حول محور واحد ، أو - كما قال شيخ المعرّة - : تطحن القرون. وذلك ما نستبعده عنها مع تمنياتنا لها بالنماء والخصب.

«قصص»

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

معائدة بن جنّات

- عروس الحلوى ..

يرتسم وجهك «يا جدّتي» في كلّ مكان تجول فيه عيناي هنا على وسادتي .. هناك على الحائط الرّمادي، على بتلات كلّ زهرة نسجتها من هواء نقي .. يرتسم وجهك ياجدّتي فينساب في داخلي ينبوع من الأحلام لا أفقه كيف تتشكل منه أناشيد أطفال وعصافير وصورة لبطل أسمر يهدي صوته للرّيح ليوقظ كلّ النيام وأستيقظ أنا لأتقبل صوته في داخلي فيفاجئني صوتك ووجهك.

للّه ياجدّتي كم هو جميل ذاك العالم الذّي تحملينني إليه وأنا أحتضن صورتك، وأنا أحتضن ركبتك وألحس عروس الحلوى .. كنت تروين لي كيف كان أجدادنا يحبون أرضهم فيسمون أشجارها بأسماء أطفالهم. وكان الواحد منهم يحتضن حفنة التّراب كوجه أصغر أطفاله، ويقبل حبات القمح كما يقبل وجه اللّه عند كلّ صلاة كان أولئك النّاس لا يعرفون المدارس ولا يطلقون أيّ اسم على العلاقات التي تجمعهم فكلّ الأسماء كانت تتحد في كلمتين اللّه والوطن كان لا يعنيهم أختراع القنبلة الذرية أو ارتفاع سعر النّفط .. كان لا يعنيهم سوى أن يسقوا أغنامهم ويحبّوا أرضهم وأطفالهم، وكنتِ أنْتِ ياجدّتي تصنعين عرائس الحلوى

للعائدين من الحقول فيهدونك بدورهم شيئا من التين أو حفنة من القمح، وكنت تبتسمين لكلّ النّاس ويبتسمون لك بدورهم فلا شيء كان يحزنهم مادامت أرضهم ونساؤهم يلدن ويلدن. ولكنك تذكرين أنه ذات مرة حلّ أناس أغراب عن القرية تتداخل فيهم الألوان الأبيض والأصفر والأزرق قال عرّاف القرية إنّها اللّعنة قد حلّت .وقال آخرون إنّ العراف قد أصابه مس من الجنون فلا تسمعوه .. كان أولئك الأغراب يريدون أرضكم لأقامة مدرسة تدرسون فيها لغة أخرى .. قيل لكم : إنكم لن تجلسوا بعد ذلك اليوم على الأرض لتتسامروا وتتقاسموا رغيف الخبز الأسمر وتناموا عندما يغتال اللّيل آخر نفس في الشموع الموقدة ! فقد صنعوا لكم مقاعد من الخشب تنبعث منه رائحة الأشجار التي سقيتموها عرقكم وعرق من سبقكم ، أعرف، يا جدّتي، أنّك بكيت كثيرا قبل أن تذهبي إلى هناك وأنّك في أوّل يوم تجرّأت قليلا ومددت بعروس الحلوى لمدرّس اللّغات فرمقك بكثير من السّخرية، وقذف بها على حائط القسم فانفصل رأسها الجميل عن جسدها وانطلقت صرخة مكتومة في أعماقك تلحق المدرّس والمدرسة وكرهت كل شيء : الأوراق المسطرة بعناية، والبدلات الأنيقة، والصوّر التي تزدان بها الحيطان. كان كلّ شيء يبدو لك باردا خانقا وكانت صفارة المدرسة هي الشيء الوحيد الذي يروق لك لأنّها تعلن أنتهاء الإرهاق الذّي استبدّ بك وأنت تسمعين كيف يمكنهم أن يسجنوا الأنهار ويحوّلوا مجراها فلا تنطلق حرة كعادتها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تسقي الكروم والشجر والأعشاب والأزهار .. كيف يمكنهم أن يسطروا أراضيكم كما يسطرون الورق الأبيض. كانوا يتكلمون ويهدمون ويهدمون وكنت ياجدّتي لا ترفعين أصبعك إلاّ لتحكي عن عرائس الحلوى والأراجيح المعلّقة بين أغصان شجر التين ، والأدعية التي تردّدينها قبل النوم، وعدد الحمام الذّي تلمعين ريشه كلّ صباح بأناملك فيضحكون كثيرا من كلامك ويشربون على نخب الحمام الذّي بدأ يفقد لونه منذ مجيئهم إلى بلدكم. اللّه ياجدّتي كيف كنت تعودين إلى البيت لتعلّمي أباك أن جاركم عندما يسقي مواشيه من ماء بئركم فإنّ ذلك يسمى سرقة فيغضب أبوك ذاك الذّي تعرفينه لا يغضب أبدا ويخاصم جاركم الذّي يدخل بيتكم كما يدخل بيته فيأكل من طعامكم وتأكلون من طعامه فلا تجوعون ولا يجوع أبدا.

كانت المسطرة التّي تحملينها بين أدباشك تطول وتطول لترسم الحدود بين أرضكم وأرض ذاك وذاك .. طالت تلك المسطرة لترسم الحدود بين كلّ قلب وقلب - كلّ شيء يا جدّتي تغيّر .. أسماء الأشجار ولون العصافير وطعم عرائس الحلوى والتين والقمح كلّ شيء تغيّر ماعدا وجه الرّجل الأسمر فقد بقي كما هو يطلق صوته للرّيح فينبعث من ناي الرّعاة وآذان الفجر وهديل الحمام كلّ شيء تغير وكنت ، يا جدّتي، في كلّ مرّة تفصلين رأس عروس الحلوى عن جسدها ولا تقولين شيئا فأنام وأنا أحتضن وجهك ووجه البطل الأسمر الذّي سيطلع فجأة من وراء الأفق حاملا شقائق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النعمان وسنابل القمح فيوزع الابتسامات على الشفاه المتعبة. يأتي ذاك الرّجل ليعيد للعروس المحطمة على جدار المدرسة رأسها، يعود إليك بسرّ المسطرة ويعيد للنّهر مجراه، وللحمام لونه فيفتح جارنا بيتنا فنطعمه فرحنا .. يأتي ذاك الرّجل فيصغي مدرس اللّغات حتّى يستحيل أحقر من نملة يصبح هو المعلم والفلاّح والطّفل والأرض فنحبّ المدرسة كما لم نحبّها من قبل ونعشق حرف «الضاد» وهو يتشكل نافورة من الأحلام ونهديه عروس الحلوى فيقبلها ويضعها على مكتبه ونبدأ أوّل درس يشارك كلّ الأطفال في شرحه ونحفظه حفظ سور القرآن والأدعية وأسماء الأشجار والجداول والأزهار. يأتي ذاك الرّجل الأسمر، ياجدّتي، فتسقط من قوس قزح ألوان الأصفر والأزرق والأبيض ويحتلّ مكانها اللّون الأسمر لون أرضنا وأشجارنا ورغيفنا وقهوتنا .. يأتي ذاك الرّجل ليختصر كلّ المسافات وكلّ الكلمات في عبارة واحدة «قم لتستقبل فجرك الآتي .. » فأقوم لألمع ريش حمامنا وتنهضين لصنع عرائس الحلوى للقادمين من هناك ... ./.

عائدة بن جنّات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمد عبد الرحمان يونس

- كوابيس -

الكابوس الأول

يحاصرني الجند .. تشرئب أعناقهم، تلمع رماحهم كوميض برق، يصطفون في السباق متلاحمين، تتشابك الرماح وتتعانق الخوذ، ترتفع الأيدي ومعها النصال ، تضيق الحلقة من حوالي .. وأصرخ، لا أحد يسمع صراخي، استنجد بكل الذين عرفتهم، يشيحون كعادتهم بوجوههم عني، تتقدم النصال من جسدي عقارب برية تقتلها الشهوة ثم تغرس ابرها السامة في جسدي يتمركز نصل حول عنقي، ويغرس اخر في صدري، وثالث في ظهري، وتحاصرني البقية من كافة اتجاهاتي، يلوح شبح أمي، طيف خيال يمر مسلما حزينا ويمسح شفتيه الطريتين بقلبي، يشدني لهنيهة ثم يرتحل غائبا لا طعم ولا لون له، اقرأ يا ولدي «سورة ياسين»، حاولت استحضارها، رفضت ، قرأت «قل أعوذ برب الفلق » بدلا منها. لكن الجند ما تزحزحوا من مواقعهم ولا اهتزت سيوفهم. وخزني أحدهم برأس الرمح في خاصرتي، دخل فيها مسافة اصبع أو اصبعين، ثم عاد أحمر ورديا، كانت الليلة صقيعا، والظلام يلف دروب المدينة، وصمت موحش يتوغل في أعماق الظلمة، وتتسرب قطرات الوكف «دلفة» بعد «دلفة» عبر شقوق تشكلت في سقوف أكواخ البحارة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المرمية بانسجام في طرف الحارة الغربية، كانت عيونهم حمراء ، وكانت أحذيتهم العسكرية طويلة وملمعة حديثا وكنت وسط الحلقة حبّة رمل في صحراء مترامية الأطراف ، تائها افترش الرمال، مستسلما لشمس الظهيرة في عز توهجها، لكزني آخر برمحه في جبهتي وسألني غاضبا :

- هل تتمنى شيئا قبل أن تموت ؟

لم تكن الأماني قادرة على الحضور، تتلاشى أمام الرماح المسلطة، ضاقت فسحات الأمل، لم أجد شيئا أقوله للعسكري، كنت أعرف أني لا أريد شيئا، طالما ان الاشياء لن تأتي أبدا، جاءني صوتها رقيقا مثقلا بالخيبة :

- هل قرأت « سورة ياسين »؟. إن لم تفعل فاقرأ «قل هو الله احد» لم اتمكن من قراءة السورة الكريمة، فجاة انقضت الرماح كضربة رجل واحد، انغرزت في مفاصل جسدي، تدفق دمي تراجع الجند الى الوراء بخطوة نظامية، كانت ابواقهم تملأ الفضاء مرددين لحنا عسكريًا كذلك الذي يردد بعد الانتصارات، وكانت دمائي تملأ الساحة العامة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكابوس الثاني

تتمدد خطيبتي مسكونة بالعزلة على سرير أثري ورثته عن أجدادي الميامين تتسامح ذليلة، يحيط وجهها شعر أسود فاحم، تحدق في سقف الحجرة. أمد يدي، لا تصل. مسافة شاسعة تفصلني عنها. تناديني : اقترب، هات يديك ياصنو القلب، أحس بشلل يأكل مفاصلي، أمد اليدين .. عاجزتان عن الوصول. رغبة مجنونة في داخلي تعلو وتهبط، وقلب خطيبتي يصرخ مكتنزا، وأحس بدوار شديد يقذف بي

في أعماق اللجة منفيا عاشقا عاجزا، تنتفض خطيبتي كعصفور مذبوح صارخة : اقترب ، تلفني الأمواج ، أطفو فوق سطح الماء .. تدفعني نحو الأعماق ثم تعيدني قاذفة أملاحها في عيني، أتكور داخل السرير، وتتشابك اخطبوطات مشكلة حلقة دائرية أبدو وسطها حبة رمل مرمية فوق الشاطيء. ضربات قوية على باب الحجرة، هاهم قادمون، أعقاب بنادقهم تضرب الباب بعنف :

- اخرج وإلا كسرنا الباب، تهتز الحجرة، ويتجمد رعب في عينيها، أحاول النهوض، استجمع قواي ، رجلاي تعجزان عن الوقوف، تسرع مرتدية عباءتها، تندس في أعماق السرير، تغطي وجهها، ترتعد .. الريح في الخارج قالعة، تهتز المدينة، وتهز أركان الحجرة ، تشتد قرعات الباب، ينخلع مرميا، يتدافعون كالسيل، يملؤون أرض الحجرة، يصيح أحدهم : «قيدوه !!» لم أكن بحاجة الى قيد، كنت مشدودا الى السرير، تفرس أحدهم مليا في وجهي، وأخرج كرباجا مخططا ساطني به عدة مرات، كنت فاقد الحركات وسرعان ما قلت له :

- أي جنون هذا ؟ ماذا تريدون من «رجل من غمار الموالي» مثلي؟.

- لا يهمنا ذلك.

أحسست حركة خفيفة بدأت تدب في أصابع يدي ، غطت مسامات يدي ، انتقلت الى الذراع، وبسرعة امسكت الكرباج وقذفته، وبصقت في وجه الجندي، كان ذلك لثوان معدودة،

سـرعـان مـا تقـدم آخـر وهـوى بعـصـاه المدببـة على يدي اليسرى، انخفضت اليد نازفة، ارتفعت بقية العصي وأخذ الجند ينهالون علي ضربا. تقدم ثالث الى خطيبتي .. طرحها .. مزق ثيابها .. عراها .. بدأت ترتعد صارخة. وكان جسدها ينزف، أخذت عيون الجند تغرس مخالبها في أطراف الجسد ثم تناوبوا على جسدها واحدا بعد الآخر، قيدوني .. صرخت : «اتقوا الله!. » كانت الحبال تحيطني من أطرافي، تقدم البعض حاملا جسدي، وكان البعض الآخر لا يزال يعتدي على خطيبتي، قطعوا شوارع المدينة الرئيسية ، وفي الطرف الآخر صعدوا قمة جبل شفشاون، ثم قذفوا بي الى أعماق وادي أبي رقراق السحيق.

الكابوس الثالث

يسطع ضوء الشمس، شروق يتقدم بخطى ثابتة بطيئة، تعانق الشمس قبب الجبال العالية، ثم تنحدر كسلى على السفح ميممة شطر الأفق، يقترب الأفق .. تقترب الشمس، يتلاحمان في عناق طويل، شفق المغيب دم، تتشكل دائرة ، دائرتان، ثلاث، ثم سرعان ما ترتسم على صفحة البحر، تبحر السفن مسافرة، تدخل عمق الدوائر، تحيطها من كل جهاتها، ترفرف النوارس محلقة عاليا، تلوِّح للشمس الرّاحلة الضاربة في أعماق الغرب تلويحة أخيرة.

ثم تشد حقائبها قاطعة مسافات شاسعة باتجاه الميناء. تقدم آخر نورس من قرص الشمس، ضمه بذراعيه، ثم انهال عليه ثقيلا مر تعدا بصمت، غير ان الشمس رمقته باحتقار،

ولم تأبه لبكائه الصامت، تركته وحيدا وأسرعت، صفق بجناحيه وارتفع محلقا متابعا بقية النوارس. الشوارع قاتمة تمتد من الخواء الى بوابات المنفى. أمشي .. أتسكع، أتحسس الجدران .. يلاحقني صمت موحش، أحاول أن أطرده، يرفض، يلتصق بي ، يتغلغل داخل مسامات جسدي، أحدق في وجوه المارة تائها غريبا، لم أجد بها واحدا يعرفني.

يعانق الليل المدينة، يتكوم فوق أرصفة الشوارع، أتابع السير ألتفت يمينا ويسارا، أبواق السيارات تصم الآذان، صخب مجنون يعسكر في المنعطفات والزوايا، سيارة تقترب نحوي، تسلط أضواءها الكاشفة، يعميني الضوء، تقترب أخرى قادمة من الجهة الرئيسية، وثالثة من الجهة الفرعية، أحاول الهروب، أركض، تلاحقني السيارات، انزع حذائي، أتماسك وأنطلق، سرعان ما تلاحقني، أتوسل رجل المرور أن يوقف السيل الزاحف، ينظر إلي مستهزئا ضاحكا، تحجر اللون الأخضر في شارات المرور، غاب البرتقالي والأحمر، كل المنافذ مسدودة من الأمام والخلف، وقلبي يرتعد، تقدمت السيارات جميعها، كنت قادرا على تمييز وجوه سائقيها بشواربهم الطويلة المسترسلة، ونظاراتهم الزرقاء المستديرة، ضاقت المسافة بيننا، زاد اقترابها، ثم صدمتني جميعها، سقطت نازفا دمائي في الشارع، بينما ظلّ رجل المرور يتأمل حركة السيارات، وهي تعود مترنحة سكرى، ويحني قامته لها إجلالا وإكبارا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكابوس الرابع

يسرع الناس في حزم حقائبهم، أتقدم بطيئا الى أحد المارة :

- إلى أين يسافر هؤلاء الناس يا أخ ؟

يشيح بوجهه عني مزدريا، ويتابع سيره سريع الخطى حاملا حقيبته وسلة صبار بيده الأخرى، تتقدم امرأة في الخمسينات، أقترب منها مسرعا :

- ماذا أصاب القوم يا خالة ؟ لماذا يجمعون حقائبهم ؟

- إنهم مسافرون ياولدي، ألا تريد السفر ؟

أقف عاجزا أمامها ولا أدري ماذا أقول.

إلي أين أسافر، وأنا الذي لا أملك درهما واحدا؟. ماذا حل بالناس ؟. يبدو أن شيئا مس عقولهم، ولذا فهم يريدون أن يتركوا الارض والاهل. تتابع المرأة: الطوفان ياولدي، ألم تسمع بالطوفان؟ يقولون : إن طوفاناسيأخذ المدينة عن بكرة أبيها، مواشيها وزرعها وبيوتها، اسرع واحضر حقيبتك.

لم يكن لدي حقيبة ولا ملابس ولا كتب، كنت خاويا تماما، تركتني المرأة،، وتابعت سيرها، تقدمت الى الميناء، وقفت على الرصيف أراقب السفن المبحرة باتجاه المجهول، كان الضباب كثيفا، والبحر هائجا، وثمة سحب سوداء تملأ قبةالسماء ، ألوح للمراكب المسافرة، لا أحد يلتفت إلي ... ينفذ صقيع الى أعماقي. أخيرا ها هو مركب يقف، حمدا لله لا يزال العالم بخير .. يصيح بي أحد البحارة : أصعد

بسرعة، لا وقت لدينا، كان المركب محملا بالصيادين، وببعض النساء اللواتي أفردن شعرهن للريح ولموج البحر. كانوا يرتدون قبعات بيضاء مخططة، وكانت شباكهم تملأ المركب، تتمدد بجوارها أسماك تفتر ابتسامات تنبيء عن طمأنينة نفس وراحة بال. سألني أحد البحارة : إلى أين يسافر الأخ ؟ لم أكن قادرا على معرفة جهة سفري، لكني أجبت : لا أعرف. إلى حيث يسافر الناس، ضحك البحارة، نظر أحدهم الى زملائه ورمقني بسخرية ، هل سمعتم ان مسافرا لا يعرف وجهة سفره ؟.

تابع المركب سيره وسط الأمواج، هبت الريح قوية، تمايل المركب، هزته الريح، تقدم الربان من البحارة، أعطاهم تعليمات لم أفهم منها شيئا ، زادت قوة الريح، تمزق الشراع، صعد بحار شاب محاولا اصلاحه، لكنه قبل أن يصل أزاحته الريح، فهوى ساقطا في الماء. صرخ البحارة : لطفك يا رب ! احتدت الأمواج، عانقها صخب، هوى الشراع، دار المركب حول نفسه، ودع البحارة بعضهم، عانقوا نساء المركب، ساد صمت ثقيل، ثم سرعان ما قذفت بنا العاصفة الى أعماق البحر.

في الفضاء كانت بعض النوارس تعلو وتهبط معانقة صفحة الماء، وكانت الشمس تجر ذيولها متثاقلة ذابلة نحو خط الأفق الغربي

محمد عبد الرحمان يونس

الدار البيضاء المغرب 20 - 4- 1985م

هند عزوز

- هجرة العقول الواعدة .. -

كان في عنفوان الفتوة ونضارة الشباب يوم أن عاد الى وطنِه حاملا للشهادة العليا التي من أجلها ذاقَ طعم الغربة ومرارةَ البعاد عن الوطن الحبيب، وعمن أنجب الوطن من الأهل واللدَات. عاد رؤوف وهو يتقد حماسا ليبث ما اختزنه عقله من معارف وما اكتسبه من علوم مدة سنوات الدراسة ليطبقها في مؤسسات بلده المتطلّع إلى العلوم الحديثة والوسائل التقنية الجديدة ذات الأساليب المتطورة الضامنة للتقدم السريع والنهضة الواعية.

عاد ونشوة الفوز تملأ جوانبَه وتهزّ أعطافه وتبهتُ من ذاكرته كلّ ما لاقاه في غربته القاسية من عنت وحرمان وما كابده من النظرات الشزرة المنبعثة من أعين العنصريين الحاقدين، إلى جانب التقتير في وسائل الاستهلاك في بلد كلّ ما فيه يغري بالاستهلاك . فهو لم يكن ممنوحا ودخلُه ينحصر فيما يبعث به له أبوه في حدود القانون - طبعا - وهذا المبلغ المقنّن لا يمكّنه إلا من عيش الكفاف على كلّ المستويات إن لم نقل الخصاصة.

عاد بوجهه الشاحب المصفرّ وهو عازم على الا يعود إلى هذا البلد .. بلد المتناقضات، بلد الشذوذات ، بلد المادة

وانسحاق المعنويات والروابط الأسرية والعواطف البشرية الرقيقة، رغم انبهاره بعظمة هذا البلد تاريخا وحاضرا. لقد رأى فيه عجبا ... رأى الحضارة في أرقى معانيها، وأروع صورها ... ورأى الانحاطاط أيضا في أبرز وأبشع مظاهره .. ولكن عاد في حسبانه باللب دون القشور وفاءً للوعد الذي قطعه على نفسه أمام أبويه يوم ودعهما ميّمما وجهه شطر بلاد العلم والتكنولوجيا فلم ينصَعْ يوما لتغرير الحسان المتهافتات هنا وهناك على الوجه الأسمر واللّحية الكثة السوداء. الحسان الممتلئات الجيوب المتفننات في أساليب الاصطياد والاغراء.

عاد وبيده ثمرة السنين الطويلة التي ضحى من أجلها أبواه بكل ما لديهما من إمكانيات وجهد حتى يعودَ مظفرا رافع الراس والكرامة، مالكا للشهادة الموعودة التي خالوها جميعا مفتاح المستقبل الزاهر ومؤشر الانطلاقة الموفقة والمضمونة في سوق الشغل والشغالين.

إنه يوم ولا ككل الأيام، يوم أشاع الفرحة في بيت السيد عبد العزيز ... ذلك البيت الذي زهد أفراده في كل ما زاد على الحاجة من ضروريات الحياة، طالما أن البكر يدرس وراء البحر خارج الحدود على حسابها، فهل تعادل هذه الفرحة فرحة؟

ومن أحاديث المداعبة والتعاليق المختلفة في ذلك اليوم السعيد بين أعضاء الأسرة ما أفرزته سميرة إحدى شقيقات رؤوف من مخزونات نفسها حول ما تعرضت له

هي نفسها من حرمانٍ وتقتير الأبوين عليها في النفقات بسببه، قائلة في صيغة مداعبة : أنت طبعا ستعوضنا عما حرمناه يا أخي من أجل هذه الشهادة فنحن أيضا كابدنا معك من أجلها ماكابدنا .. فانا شخصيا كنت كلّما تقدمت بطلبٍ لاقتناء بعض ماتشتهيه نفسي خارج الضروريات الأكيدة للدراسة إلا وأجدُ الاجابةَ سلبيةً ومكسفة : «حبذا يا بنيتي، ولكن أنت تعلمين أن نصف الميزانية يطير لاخيك خارج البلد ... فمن أين لنا تحقيق مثل هذه الطلبات على كلٍّ فانت وبقية اخوته لكم عليه بعض الفضل بصبركم هذا عما تشتهون وهذا دين عليه لا بدَّ أن يسدّده لكم يوم يعود باذن الله ناجحا غانما .. ونحن بدورنا سنعوض لكم ما فاتكم بعد عودته اه ما قولك ؟ » ضحك رؤوف وأجاب فورا «أجل أجل كلُ ما قيل صحيح. وأنا معترف لكم جميعا بالفضل وفي اعترافي الخير كلّه.»

وبعد عشر سنوات وفي يوم صحو جميل زهت فيه الطبيعة واختالت على مختلف المستويات حيث أشرقت شمس الظهيرة إشراقتها البديعةَ النيرةَ التي يشد لها السياح الأجانب الرحال في مواسم الاصطياف من كل حدب وصوب ليستمتعوا بأشعتها البنفسجيّة فتكسبهم سمرة خمرية ساحرة طالما اشتاقوا اليها وما منحتهم إياها مناطقهم الثلجية الباردة .. في ذلك اليوم أي في اليوم الأول من شهر جويلية حيث نثرت السماء خيوطها الفضية على ربوعنا، وفتحت أرض تونس أذرعتها لاستقبال أبنائها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المغتربين فاتحة لهم الدار كضيوف لبضعة أيام أو اسابيع، ثم يعودون الى مضارب الهجرة ومواقع الاغتراب باجسامهم ... وبأجسامهم فقط تاركين وراءهم عيونا دامعة ومهجا حائرة، وقلوبا واجفة من مغبة طول الفراق.

نعم في ذلك اليوم وبعد عشر سنوات عجاف جلس رؤوف الى إحدى طاولات قهوة مطار قرطاج صحبة زوجته وابنيه، تحوط بهم هالة من المودعين وفي مقدمتهم الأبوان والأخوة وعدد من أسرة الزوجة وبقية الاهل والاصدقاء .. جاء جميعهم لوداعه بعد أن قرر الهجرة الى البلد الذي لم يفكر يوما في العودة اليه إلا كزائر عابر .. وقد كان في تلك الآونة يتصنع الفرحة، ويوهم بالاطمئنان والانشراح حتى لا يذكي في نفس الأمّ مشاعر الحسرة وجذوة نار الفراق من جديد، وحتى يطمس خوف زوجته من مغادرة الوطن لأول مرة في حياتها، ومن الاقدام على المجهول بكل ضبابياته .

تحلق الجميع حول مائدة الوداع يحتسون على نخب الأسرة المهاجرة بعض المبردات والقهوة، وهم يتبادلون التعاليق المختلفة التي تفوح من جميعها رائحة الحسرة على ماآلت اليه الأمور. وكانت سميرة تنظر الى أخيها في انكسار وإشفاق، ولسان حالها يقول : ليتك تبقى بيننا يا أخي فنحن متنازلون عن التعويض ...ولكن. رؤوف لم يكن حاضر ا في هذا الجمع إلا بجسمه، ولم يستمع الى شيء مما يدور حوله، إذ إنه غاب بتفكيره الشارد وأخذ يستعرض في صمت شريط حياته، وأحداث العشر سنوات المقيتة، وحتى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما قبل العشر سنوات، يوم أن كان طالبا بأوروبا همه الأوحد أن يعود الى وطنه إطارا كفءاً وعنصرا نشيطا في مؤسساته ودواليبه حتى يطبق ممارسة العلوم الحية بالأساليب والتقنيات المتطورة الجديدة في بلده الحبيب مساهمة منه في دفع عجلة التقدم، والخروج به ولو شبرا عن حدود التخلف، ووسائل العمل الروتينية البطيئة المملة.

لقد رأى هناك الحضارة العريقة الشامخة في أعظم صورها واشتهى وتاقت نفسه الى أن ينقل منها ما تخوله له قدراته إلى موطنه بفضل ما اكتسبه من علوم، وما تعلمه من أساليب حياتية دقيقة التخطيط، أساليب تتصف بالنضج والعقلانية وفهم لعبة الحياة على أسس متينة قوامها الانضباط والجدية في العمل واحترام الدقيقة والساعة واليوم والشهر والسنة .

ولكن ما إن عاد بالغنيمة الموعودة حتى بدت له أحلامه سرابا، وآماله متاهات ورؤاه المستقبلية أضغاث أحلام، لا أثر لها على أرضية الواقع المعيش.

ابتسم رؤوف ابتسامة مرة هازئة، وامتدت يده في تثاقل إلى قطعة السكر التي وضعت في الصحن الى جانب فنجان قهوته وألقى بها في الفنجان، وأخذ يذيبها في محلول القهوة بشرود واضح ثم اخذ يتابع تحلل قطعة السكر في ذلك المحلول الأسود الساخن مخاطبا إياها في سره :

«لا تحزني ايتها الحلوة النقية، فحالنا سواء، لقد ذبت

أنا في هذا البلد مثلما ذبت أنت في هذا الفنجان .. ولكن مع وجود الفارق ذوابنك يشيع طعم الحلاوة في فم شاربيك ... أما ذوباني أنا فقد ترك المرارة في نفوس كل من حولي ممن جاؤوا اليوم لوداعي .. وهم يتصنعون الابتسامة والمرح مثلي ... ذبت لأنني مثلك متكون من عناصر حلوة ونقية ولينة .. لذلك ذبت، وتحللت مثلك في دنيا الضباب، دنيا المرارة والضياع ..» في تلك الآونة تعالى صوت رقيق من مكبر الصوت بالمطار قائلا في تلطف : أيها المسافرون الكرام لقد تأخر موعد إقلاع الطائرة بالنسبة للمسافرين القاصدين اتجاه باريس لبضع ساعات أخرى فالرجاء أن يكونوا في الموعد الجديد .. شكرا.

وما ان وصل هذا التنبيه الى مسامع الأم حتى تهلل وجهها، وكأنها سعدت بهذا التأخير، فقالت محاولة اخفاء ما بنفسها من تأزم وحسرة للفراق :

- يبدو يا بني أن بلدك عزيز عليه فراقك مثلنا، فأراد استبقاءك بين أحضانه ولو لبضع ساعات أخرى.

ابتسم رؤوف ابتسامة مضغوطة تحمل ألف معنى. ابتسامة كالحة لا تمت الى صنوف الابتسامات بأي صلة، واحتقن وجهه وبدت على ملامحه انفعالات ونظرات هازئة.

لم يجبها بشيء ولكنه ظل يقول في نفسه : «العكس هو الصحيح يا أماه بلدي لم يحفل ببقائي في حماه، بلدي رفضني رفضا بشعا منذ عودتي اليه، وسحب البساط من تحت قدمي بلا شفقة ولا رحمة، بلدي تلقاني يوم رجوعي الى

حضيرته بصفعة البطالة وأوغل في تجاهلي وإهمال أمري كأنني ربيب عاق، ولرغبتي في العيش في أكنافه، وبالقرب منكم تحملت الكثير والكثير .. وأنت وغيرك يعلم ذلك ، لقد تحاملت على نفسي وكونت من اللاشيء شيئا، كونت شيئا محترما وذا قيمة مرموقة بامكانيات محدودة وجهود جبارة .. ولكن ضاع هذا الشيء في زحْمة الأشياء الغامضة ، والعقبات الكأداء وإمكانيات البلاد المحدودة والمهدورة هنا وهناك ... فكيف لمن كان مثلي لا يملك إلا العزيمة والشهائد التي حملتها عبئا ثقيلا دون جدوى أن ينجح في مشاريعه ومساعيه، ويقف على قدميه ثابتا إزاء التحديات الطاغية، والضغوطات القاسية والعراقيل الناسفة والمسترسلة بلاحد ولا حدود، وابنك يا أماه لا يقبل أن يقبر معلوماته التي ضحى من أجلها بأحلى سنوات العمر فيجعلها عرضة للتلف والنسيان ولا يرضى كذلك بأن يعيش على الفتات بعد الجهد والتحصيل، وتجرع كاس الغربة والبعاد على مرارته. إن بلدي لا يعلم كم أنا حزين لفراقه الساعة، فكل ذرة في ترابه تشدني إليه لأنها جزء من الارض التي انبتتني وأنبتت آبائي وأجدادي، وإن أنسى فلن انسى سماءها الصافية التي تذكرني بصفاء أيام الطفولة العذبة بين أبوين واخوة أقسى ما يعذبني اليوم فراقهم، ولا بحرها الجميل الذي على هديره تفتحت على الحياة، وبين مد وجزر أمواجه الفضية الثائرة بأحد شواطئه الخلابة تعملت مواجهة الحياة، بشجاعة وعزيمة ... ولكن .. ولكن بعد الكفاح المر وطول النفس استسلمت للواقع وآمنت بحقيقة اسمها الهجرة . آمنت بها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كحل لا بديل له لمعضلتي .. إذ انتحر أملي في هذه الأرض الطيبة اليوم .. ومن يدري فقد أعود اليها يوما، وقد لا أعود إلا شبه أجنبي عنها، ونكرة من النكرات ..

وعندها أحسَّ بشروده وبأنه غاب بعيدا عن الجمع الذي يحيط به تدارك أمره قائلا : بفضل علوم القرن العشرين وتقنيات البلدان المصنعة، والأدمغة العاملة فيها ليلا نهاراً للبحث عن الأسرع والأريح والأوقع في النفس في وسائل التنقل وغيرها يطيب العيش ويسهل التعامل مع الحياة.

عندها قال الاب في نبرة مؤثرة : «أجل .. أجل وهذه غايتنا من الحرص على تعليمك العلوم .. ولكن ما حصدنا ما نؤمل.»

أجاب رؤوف في لهجة الواعد الواثق : لا يا أبي سنزرع في أرض غيرها ونحصد إن شاء الله، ما دمنا نملك البذور، فأرض الله واسعة .. ثم ألا تعلم يا أبي أن هناك دراسة صدرت عن البنك الدولي تفيد بان هناك 70 ألف عالم وخبير افريقي يوجدون حاليا في الغرب ؟ لماذا ؟ لان ظروفهم نفس الظروف التي دفعتني دفعا الى الهجرة، ولا إخالهم من الزاهدين في أوطانهم.

وهنا تدخلت زوجة رؤوف الأستاذة المثقفة قائلة ، وهي تتفقد اشياء ابنيها الصغيرين في الحقيبة المصاحبة لهم : إيه وتقدرون فتضحك الاقدار، فلكم وددت أن يشب أبنائي في مناخهما الطبيعي بين جداول بلدهم الرقراقة وسهولها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخضراء، وتحت ظلال أشجار زياتينها الوارفة، ونخلها الباسق، حتى ينغرس في نفوسهم حب الوطن، ويشبون في أخضانه ويترعرعون بين أذرعته الحانية، فيكون حاميا لهم في صباهم ويكونون له درعا في عهد الفتوة والشباب، ولكن هذا ما حصل ولعلّ في ذلك الف خير .. وغالبتها العبرة فأمسكت .. قال حسام شقيق رؤوف متأثرا : بل تأكدي من ذلك يا هادية، وكوني مطمئنة، فلن تطول هجرتكم باذن الله ثم هي فرصة لك لتتعرفي على بعض الأنماط الحياتية في اقاليم لم تتعرفي عليها من قبل، وقد قرأت عليها الكثير أليس كذلك.

وهنا عاد رؤوف الى شروده، وعاد الى ذهنه الحوار الذي دار بينه وبين زوجته هادية يوم أن قرر الهجرة وصمم عليها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قالت له : أليس لنا أن ننتظر مرور هذه السحابة السوداء التي رانت على البلاد فقد يتحسن الاقتصاد الوطني وتتبلور الأمور، فمشروعك له مستقبل لا يستهان به لوتتاح له الامكانيات المناسبة لحجمه.

قال : «لقد استنفدت شحنة الصبر والانتظار الطويل يا ما عانيتِ معي شدائد القهر، والروتين القاتل، وتأكّدَ لديّ اليوم أن مشروعي هذا الذي تتحدثين عنه لا يحيا الا في مواطن الحياة .. فهذا المشروع لا ينهض ولا يزدهر في بلد المتيمين بأكلة اللبلابي والرقص على الطبول الخاوية .. وذلك هو خطئي، فلو أني فتحت دكانا لبيع اللبلابي أو

الكسكروت لكان أمري غير ما أنا عليه الآن. ولو أني صقلت صوتي وتقدمت به في أحد المهرجانات أو حلبات الغناء لحققت أغلى المكاسب في أقصر الآماد وأصبحت صورتي تحتل واجهات الصحف بالألوان الطبيعية واسمي على كل لسان .. ولقصدني أثرياء القوم بجيوبهم المنفوخة من كل حدب وصوب، وأعطوني دفعا سحريا عجيبا يدرجني في قائمة الوجوه البارزة من عباقرة الوطن، ولكن سوء تقديري للأمور دفعني الى مسلك العلوم في بيئة متيمة بحب الاكلة البسيطة اللذيذة وبسماع الغناء من المغرب حتى مطلع الفجر .. ايضا لو سلكت مسلك «البزنسه» لعلا شأني وتضخمت ميزانيتي، ولفتحت مغازة «بوتيك» تخطف الأبصار والألباب في أهم حيّ تجاري يؤمه السادة الكبار .. لكنني كنت غبيا فاتجهت الى العلوم والهندسة في ميدان نحن لسنا في حاجة اليه اليوم .. ولن نحتاج اليه إلا بعد حيّز زمني الله أعلم بمداه إن قدّر لنا أن نحتاجه يوما ما ونتفهم قدرته العجيبة على التقدم والرقي، يومها قد نعمل بصفة جدية على انتشاره ونعطي للمختصين فيه حظهم من الاعتبار والاهتمام اما اليوم فلا، ألا تذكرين كم بقيت في انتظار استكمال ملف المشروع بعد تحضيره بكل الوثائق المشروطة حتى أحصل على الموافقة لانطلاقته ألا تذكرين كم بقيت في انتظار الامضاء الواحد من مجموعة إمضاءات لا يمكن للمشروع أن ينطلق بدونها ؟ ألا تذكرين عدد الأيام واللّيالي التي قتلتها وقتلتني في سبيل بعث هذا المشروع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للوجود وتمشيه على قواعد علمية ثابتةٍ وطموحةٍ . فماذا جنيت في النهاية ؟ كنت طالبا فأصبحت مطلوبا .. قالت والحسرة تأكل قلبها : «قاتل الله روتين الادارة .. وضعف الامكانيات .. والاّ فمشروع كهذا حرام أن يموت وهو في الفتوة.»

قال : « خير الف مرة أن يموت هو ولا أموت أنا .. فالهجرة أصبحت الملاذ الأوحد الذي به تزدهر حياتي ، وبواسطته سأستغل معلوماتي.»

قالت : « ولكن .. » وخنقتها العبرة فلم تستطع ان تتمم ما أرادت البوح به .. احس رؤوف بما يعتمل في داخلها فقال :

- أنا لا أرغمك على مرافقتي يا عزيزتي لكن ثقي بأنني لا أقوى على الهجرة بدونك وبدون ابنيّ اللذين هما كل ما كسبت في مسيرة العشر سنوات القاحلة .. أي بعد التخرج الذي كافحت من أجله 26 سنة ..

قال هذا بمرارة وهز كتفيه سخرية واستهزاء .. ثم قال :

- أملي أن تكوني أنت على الاقل سنداً لي في غربتي الجديدة .. ولكن مع ذلك فأنت حرة ، ولا أريد ارغامك على شيء لا ترتضيه نفسك، أو على مشاركتي ما أنا فيه .. فقاطعته قائلة وهي تكفكف عبراتها :

- أنا معك ولن أكون إلا معك أينما ما كنت وحيثما حللت فالهجرة مهما تكن ثقيلة وقاسية ففراقك أثقل على نفسي وأقسى.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبينما هو غارق في سهومه هكذا، واذا بالصوت الناعم الرقيق ينطلق من جديد عبر مضخم الصوت وينتشر في معابر المطار ليعلن عن حلول موعد سفر الطائرة التي ستطير برؤوف وعائلته الصغيرة الى مضارب الهجرة النائية. فتحرك الجميع نحو مدخل المسافرين، وفي المقدمة رؤوف الذي تعمد أن لا يملأ عينيه من أبويه أكثر حتى لا تفرط منهما دمعة قد تبقى في ذاكرتهما عاملا منغصا طول غيابه. وما هي الا لحظات حتى توارت الأسرة المهاجرة عن الأنظار .. وعاد الجمع المشيع فاترَ الخطوات يجترّ تعاليقَ متباينة بين مغتبط متفائل، ومشفق متخوف من مغبة المغامرة وقال أحدهم :

- إيه على كل فعزاؤنا في كل هذا أننا أصبحنا بلداً يصدر الأدمغة، ولا يقتصر على تصدير الايدي العاملة والسواعد المفتولة .. وهذا قد يدخل في باب الاجابيات ..

وقالت الام :

- وعلى الآباء ان يضعوا حجرا في مكان القلب منهم.

قال الاب :

- ما كان هذا في حسباننا.

وقال رابع :

- خسارة ... البلاد في حاجة إلى أمثاله، ولكن..

هند عزور

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمود الحاجي

- فصلٌ من مقامة -

حدّثنا أحد الإخوة، وكنّا مجتمعين في رحبة القرية، ليلة صيف، تحت قمر ساهر، قال :

«عندما بلغ التعقب بعبد الرحمان بن خلدون - نَوَّرَ الله قبره وضريحه - وأطال الله بقاءه لنا جميعا، وكان في ذلك الوقت ألّف كتابا تكاثرت اوراقه وقلما بدأ يجفّ مداده، فكّر في الترحال الى المشرق. فقد جال الارض المغاربية شبرا شبرا وأقام بالأندلس وعرفها كلها ... لكنّه ما إن وضع عن بعيره حتى فوجيء برجلين يرتديان معطفيْن فاخرين ، ويضعان نظارتين سوداوين، يتقدّمان منه وأيديهما لا تغادران جيوب المعطف.»

صاح أحدنا معترضا :

«تقول معطفين ونظارتين ! أراك قد خلطتَ السنين والدهور ، فما هذا الخَورَ؟»

وصاح آخر :

«دع الراوي يتمم مقامته، فما هي إلاّ حكاية!»

فأجاب الأوّل :

«حكاية، أو ما شئت إلا يمكن أن نعبث هكذا بتراثنا

الجليل، فنخلط كل شيء . فهل تقبلون أن أقول لكم مثلا : انّ المتنبي قد ركب الطائرة عوض الفرس، وأن الجاحظ قد سقطت عليه آلة راقنة فقتلته عوضا عن الكتب، وان شعراء التصوف قد أُعدم أكثرهم رميا بالرصاص في حين أنهم عُذّبوا وعُلّقوا في المشانق. وهل تقبلون أن أقول لكم بأنّ المعري كان يرى ويبصر ويسافر من بلد الى بلد فيتمتّع بمشاهداته ويصفها في كتاباته ؟!.» أجاب الثاني :

«يا أعمى العقل والبصيرة ! ألاَ ترى أنّ المعري قد سافر طويلا بعقله وخياله في أروقة الجنان وفي درك الجحيم، فكتب لحمار مثلك (رسالة الغفران)؟!.»

انتفض الاول بسرعة مهدّدا صائحا :

«أرجوك، ما هذه النعوت المشينة الوقحة ! نحن في سهرة أم في قهرة ؟» أجابه الثاني، وقد اهتدى الى حل قائلا له مازحا :

«يا صاحبي، نحن في سهرة. والسهرة سمر ولقاء وحفلة. السهرة حديث وحكاية وحكمة. لذا، دَعِ الراوي يبسط الحكاية والخيال فيرقى من الواقع الى المثال، كما يريد ويشاء».

وضحكت الجماعة وصفّقت لهذا الحلّ المسالم. وطلب محدّثنا من الحاضرَين أن يتصافحا، ففعلا. وَصَلَ الراوي حديثه وقال : سأله أحد الرجلين بلهجة حرشاء وبكلمات خشناء :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- أنت ... ابن خلدون ؟؟

- أيْ ... نعم !!

– كما ترى مبعوثَيْن من لَدُن الامير الحفصي للقبض عليك بسبب مغادرتك البلاد دون إذن منه وبدون جواز سفر.

- هذا غير معقول! هذا غير ممكن! ألاَ تعلمان بأني شيخ علم وأنّي كتبت المقدمة وبعضا من كتاب العبر وجئت هنا لأُواصل ما نقص من أخبار ملوك العجم ودول الترك و..

وبلغو ا المدينة ليلا فساقوه الى السجن. وهناك تركوه في زنزانة ضيقة ملساء باردة. أقفلوا بابها. وأمروه بالحركة والمشي. ولم يشعر - وهو يذرع هذه الغرفة الضيقة جيئة وذهابا إلا وخيوط ضوء تتسلل من خلال قضبان الحديد الصغيرة الموجودة في أعلى الزنزانة. ثم سمع وقع أقدام ثقيلة، وإذا بالحارس يطل ويطلب إليه أن يتبعه. وعندما مَثُل أمام الامير، سأله :

- لماذ ا غادرت بلادنا يا عبد الرحمان ؟ هل كنت جائعا بيننا ؟ ألم نوفّر لك ظروف البحث والعمل ؟

- سيّدي الأمير، أنتم تعلمون ولا شكّ أنّني شرعت منذ زمن في تأليف كتاب العبر. وقد سُقْتُ أمثلةً من دَوْلَتكم ودُوَل سابقيكم. وعندما شعَرت أنّني بحاجة الى معرفة تاريخ المشرق شَدَدْتُ رحالي واتّجهت الى مصر.

- هل كنتَ تحمل جواز سفر ؟

- لا .. ما كنت أعلم أنّ السّفر الى مصر أو الشام أو العراق أو الجزيرة يستوجب ذلك !

- هذه بدعة آخر زمان ! تتجاهل ذلك وأنت تعرف عنا الكثير والكثير يا عبد الرحمان !

!!!-

- أنت أسأتَ إلينا فيما كتبت ؟ أليس كذلك يا عبد الرحمان ؟

- حاشا لله ! لقد حاولت فقط أن أنظر إلى تاريخ كل الدول التي مَرَّتْ من هنا فأحلّل الأسباب ومسبّبات القيام والسقوط.

- ذكرت أنّ الجيل الخامس هو جيل الفساد وأن الدولة تنتهي على يديه. ونحن سنهلك في القريب العاجل حسب رأيك !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- يا سيدي الامير، لست نبيًا أو منجّما فأقرّر بأنّكم .. عفوا .. بأنكم .. ستهلكون اليوم أو غدا. لكني وضعت شكلا هرميا فيه بداية التكوين وقمة الشأن ونهاية السقوط. وما ذلك إلا اجتهاد مني وتأويل لأعمار الدول !

- اخبرني يا عبد الرحمان، هل تفتخر بعروبتك وأصالتك رغم ما يحدث عندنا وعند جيراننا ؟

- أنا عربي، وكفى !

- وقولك : «إذا عُرِّبَتْ خُرِّبَتْ !» كيف تفسّره ؟

في هذه اللحظة، لمح عبد الرحمان الجماعة الحاضرة حول الامير تحرك حبات المسابح، وتنظر إليه شزراً وازدراء. وهي تتمتم وتغمغم .. فهاله المنظر وارتعدت فرائصه. أغمض عينيه لحظة رأى فيها قبائل الأعراب من بني هِلال وبني سلَيم وبني رِياح، وهي تزحف عبر الصحراء قادمة الى بلاد إفريقية .. بدون جواز سفر .. فأحرقت الزرع وهدّمت المدن وقتلت الأطفال ... وسمع أصواتا تأتيه من بعيد، وكأنّها تقرأ وتردّد فصولا ومقاطع من كتابه، فتُأوّل وتُحَرِّف وتزيد كما تشاء وتريد. فها له المنظر وأفزعه الأمر عندما تنبّه الى هذه الأصوات وهي ترميه بنيران تُهَمِها ودَعْواها.

ولم ينتبه من غفوته تلك الا والجلاد يقف منتصبا أمامه وبيده سيف كبير. التفت الى الامير فلم يجده على عرشه. وسمع من جديد أصواتا قريبة تردّد نغما واحدا تملأ به أرجاء القصر :

لِيَمُت الخائن ! ليمت الخائن !

ومرّتْ بخاطره دول المغرب التي قامت وسقطت. تذكّر أقوام الاعراب الجائعة القادمة من مصر. تذكّر أيامه التي قضاها متنقلا من إفريقية الى الاندلس ساعيا الى أعلى المراتب السياسية دون أن يحقّق إحداها ... وانحدرت من عينه دمعة كبيرة سقطت على أرض القصر فأحدثتْ أنينا وأنينا. عندها نَدّت عن الجماعة صيحة واحدة :

« .. لو كان عربيا يفتخر بعروبته، لَمَا بكى كالمرأة !! يا للعار ! يا للعار ! »

وأغمض الجلاد عيني عبد الرحمان بقطعة قماش أسود، وجاء بالأوراق الكثيرة التي كتبها، فأضرم فيها النار. فصاحت الجماعة استحسانا بينما كان هو يشمّ رائحة الورق الملتهب، ويقف قوله في جيلها الثاني.».

ولمّا أتمّ محدّثنا حكايته، كان الليل قد اكتهل، وكان صاحبنا الذي هاج وماج في بداية السمر قد اعتلى ناحية من دكانة الرحبة وأسْلَمَ نفسه لنوم عميق. وأما الآخر، فقد دمعت عينه ورق فؤاده لهذه النهاية العجيبة القاسية.

قال لنا محدثنا :

« ما دامت للحديث بركة ومنافع، وما دام للحكاية أثر وفائدة فسأروي لكم قصصا من تاريخنا وتراثنا، أخلطها بقليل أو كثير من خيالي وأحلامي، فلعلّكم تذكرونها يوما فتَحْكُوهَا الى شباب الرَّحبة والحَوْمَة، وتضيفوا إليها ما وسع لكم من خيال معتدل، حتى ينام عليها من أراد، ويدمع فيها من شاء، ويمزح منها من أحب ...» وانصرفنا متعجبين.

محمود الحاجي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مصطفى الشريف

البحث عن الخلاص
I

في مجموعة « رسائل لا يحملها البريد » لبنت البحر

	ص
I / في الجنس الأدبي للمجموعة	1
II / المضمون الأدبي للمجموعة	5
أ - مظاهر الأزمة الوجودية للكتابة	5
1 - التعبير عن الفشل	5
2 - الأنوثة المضطهدة	7
3 - الوحدة القاتلة	9
4 - التعبير عن الخوف	11
5 - التعبير عن الحزن	12
6 - الإحساس بالموت	18
ب - أشكال تجاوز الأزمة	21
أولا : الحلم	22
ثانيا : التحليق في العالم العلوي	29
ثالثا : تجاوز الواقع بواسطة الفن	38
ج - عودة الأزمة وسقوط الحلم	43
III / الشكل الفنّي للمجموعة	46
الخاتمة	51

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البحث عن الخلاص

في مجموعة « رسائل لا يحملها البريد » لبنت البحر

يسعدني أن أقدّم للسادة القراء مجموعة بنت البحر «رسائل لا يحملها البريد » الصادرة على نفقتها الخاصة سنة 1989 وكانت الكاتبة أصدرت سنة 1983 مجموعة قصصية بعنوان « الطفلة انتحرت » عن الدار العربية للكتاب.

أولا : في الجنس الأدبي للمجموعة

احتوت هذه المجموعة على تسع وثلاثين « رسالة » من الشعر المنثور تضمنت جميعها بعدا رومانسيا حيث تناولت فيها الكاتبة قضايا أزمتها الوجودية باحثة عن سبل تجاوزها بالحلم تارة وبالخلق الفني تارة أخرى لذلك جاءت هذه الرسائل طافحة بمشاعر الغربة والحزن والقلق الوجودي والإحساس بالموت ممّا سيأتي الحديث عنه في إبانه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ليست هذه الرسائل اذن من باب الرسائل المتعارفة التي يرسلها الواحد منّا للآخر عن طريق البريد ليخبره بحاله أو ليبثّ اليه مشاعره وانما هي - كما جاء بالعنوان- « رسائل لا يحملها البريد » « لأنها رسائل أخرى غير معهودة » كما يقول الأستاذ المطوي عند تقديمه للمجموعة طيّ الغلاف أنشأتها الكاتبة الأديبة حفيظة قارة بيبان مدفوعة في ذلك بهاجس الكتابة والإبداع. يقول الأستاذ محمد العروسي المطوي عن هذه المجموعة في التقديم انها «نمط طريف من الكتابة والإبداع » لكنه لم يحدّد الجنس الأدبي الذي تنتمي اليه هذه المجموعة التي وصفتها الكاتبة

بكونها « رسائل » مكتفية باستعمال عبارتي «كتابة» و«ابداع » في وصف النمط الذي كتبت عليه هذه المجموعة ولعلّ الذي قاده إلى ذلك ما لاحظه « في نسيجها من شفافية الرومانسية وغبش الضبابية والخروج من المألوف » لأن مفهوم « الكتابة » و « الإنشاء » من المفاهيم الرومانسية التي لا تفصل بين الشعر والنثر بحيث نجدهما يتداخلان في النصّ الواحد كما فعلت الكاتبة في مجموعة هذه الرسائل وهو ما لاحظه الأستاذ فؤاد القرقوري في دراسته للرومنطيقية في الأدب العربي بقوله : « في بعض أشعار الرومنطيقيين العرب بصمات كثيرة من النثر ... وفي معظم نثرهم سمات كثيرة من الشعر مثلما يبدو ذلك واضحا جليا في نثر جبران أو الشابي أو نعيمة وغيرهم. هي الكتابة اذن بل هو الإنشاء بصرف النظر عن المقاييس التصنيفية التي ألفها الناس » (1) لذلك وصفنا هذه المجموعة في بداية حديثنا بأنها من « الشعر المنثور » لما لاحظناه فيها من مشاعر فياضة وتصوير للواعج النفس واحتفاء بالصور السحرية العجيبة بل والخارقة للعادة أحيانا واسترسال في الحلم كل ذلك بأسلوب نثري طغت عليه الغنائية والإنشاء ممّا يترجم بوضوح عن خصائص وسمات الأدب الرومانسي.

لكن هل يمكن اعتبار « الشعر المنثور » صياغة فنيّة جديدة حقّا في أدبنا العربي والتونسي منه على وجه الخصوص كما أعلن ذلك الأستاذ المطوي عندما قال : « أعتقد أن هذا النوع من الإبداع ... جديد في نمطه ومزجه طريف في حبكته ونسجه » ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الظاهر أن الأمر على خلاف ذلك فالأستاذ محمد صالح الجابري مثلا يذكر في مقال له بعنوان « أدب المرأة في تونس » أن أقدم محاولة أدبية نسائية نشرت بمجلة « تونس المصوّرة » سنة 1938 وكانت عبارة عن « قصيد بكائي مغرق في الرومانسية والإحساس بالموت عنونته كاتبته بعنوان (يا أماه دعيني أبكي) وأمضته باسم مستعار هو (ابنة الضاحية) ويضيف الأستاذ الجابري قائلا عن هذه المحاولة : « وهي من الشعر المنثور مليئة بالأشواق العذرية وحنان البنوّة » وهذه عينة منها :

أماه دعيني أبكي ، ففي البكاء راحتي وهنائي
دعيني أنتحب ففي نحيبي فرح كآبتي
دعيني أذرف الدموع السخينة
ففي دموعي تخمد أشجاني
أمّاه دعيني أبكي
أمّاه أشعر بيد حديدية تقبض على قلبي

إلى أن تقول :

أشعر باضطراب في نفسي
أماه ... دعيني أبكي !
أن تبني لي ضريحا في غابتنا هذه وتدفنيني
تحت ظلال صنوبرها لكي لا تسمع روحي سوى الصراصير
ولكي لا تتنشق سوى عبير الصنوبر
ولكي أهنأ أنا في قبري بعض الهناء
تلك وصيتي يا أماه أقولها لكي
فدعيني الآن أبكي » (2)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه اذن محاولة من الشعر المنثور مضى عليها الآن أكثر من خمسين عاما. يقول الجابري معلقا على هذه القطعة: « هذا الشعر المنثور يقطر حنانا وصفاء وعذوبة وهو يعبّر عن رومانسيّة فتاة خائبة » مستنتجا من ذلك أن « المرأة في تونس وفي سنوات ما قبل الحرب الثانية قد التقت بالتيارات الرومانسية وعرفتها وتأثرت بها ووجدت صدى في نفسها الحافلة بالعواطف فأقدمت على المشاركة فيها بالكتابة والشعور » (3).

وسنبيّن في القسم الثاني من هذه العرض الى أنّ الكثير من المعاني التي جاءت في نصّ ابنة الضاحية قد وردت فعلا في مجموعة هذه الرسائل لبنت البحر.

أردنا بهذه المقدمة الإشارة الى أن النمط الذي كتبت فيه بنت البحر هذه النصوص ليس في الحقيقة نمطا جديدا كما ذكر ذلك الأستاذ المطوي وإن لم يسمّه انما هو نمط قديم وأثر من آثار المدرسة الرومانسية التي ظهرت في أدبنا العربي في النصف الأول من هذا القرن. يقول أبو زيان السعدي في فصل خصصه للحديث عن القصيدة النثرية من كتابه « في الأدب التونسي المعاصر » إنّ « القصيدة النثريّة أو الشعر المنثور أو النثر الشعري ... والذي يدعوه البعض باسم « في غير العمودي والحرّ » ... ليست جديدة في حياتنا الأدبيّة ... وانما هي ظاهرة بعيدة في الحياة الأدبيّة العربيّة برزت واضحة متكاملة في المهجر الأمريكي أثناء محاولات جبران والريحاني وغيرهما » وهو يذكر في هذا الصدد أنّ

أبا القاسم الشابي ومحمد البشروش ومصطفى خريف كتبوا الشعر المنثور ونشر الأستاذ أبو القاسم كرّو مجموعة من قصائد النثر تحت عنوان « كفاح وحبّ » (4).

أمّا عن طريقة كتابة الشعر المنثور فيقول أبو زيّان السعدي : « جرت العادة أن ... يتوزّع ... في أسطر يتحكّم في طولها وقصرها تمام المعنى النفسي وانتهاؤها إلى شيء من الإيقاع الغامض » (5).

وفعلا فنحن نلاحظ في هذه المجموعة من النصوص أنّ الكاتبة اعتمدت طريقة الكتابة على السطر بحيث جاء التعبير منغما موقّعا مقطّعا وفق سياقه المنطقي كما في القطعة التالية بعنوان : رسالة إلى نورك ص 12 من المجموعة :

« لو يمتدّ حلمي من شجرة الليل
ويعانق وجه النهار
ويزهر بك !
يا من يأتيني كالنسمة المنعشة في حرّ الصيف
ناعمة لطيفة
لا ترى ولا تلمس
تغزوني تطهّرني
وقتها
أنهض نافضة كفني وأقنعتي
وأطلع اليك نجمة وحيدة التألق في الدّجى والسكون
فيكون بك الرّحيل ».

وما دام غرضنا من هذا العمل هو تقديم النصوص التي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

احتوتها المجموعة يكون من الأنسب اعطاء القارئ الكريم فكرة عن مضمونها الأدبي أولا قبل الحديث عن خصائصها الفنيّة.

ثانيا : المضمون الأدبي للمجموعة :

يمكن تقسيم المجموعة من حيث المضامين التي تناولتها إلى محورين كبيرين هما : محور الأزمة الوجودية للكاتبة والأشكال التي ارتأتها لتجاوز هذه الأزمة أي إن المجموعة تقوم في رأينا على ثنائية الأزمة والتجاوز أو الواقع والحلم وهو ما سنبيّنه في عنصرين اثنين :

أ - مظاهر الأزمة الوجودية للكاتبة :

الفشل والأنوثة المضطهدة والوحدة القاتلة والخوف والحزن والإحساس بالموت تشكّل جميعها مظاهر الأزمة الوجودية للكاتبة ،ونحن نقترح ترتيبها على هذا النمط بدءا بالمظاهر الخارجية وانتهاء بالمظاهر الملاصقة بذات الكاتبة.

1 - التعبير عن الفشل

نظرت الكاتبة إلى واقعها بروح تشاؤمية واضحة وذلك نصّ (رسالة غير مباشرة الى الشمس) ص 44 جعلت له عنوانا « موسم الجفاف » وفيه تقارن بين نزول المطر من السماء أسلاكا فضيّة تروي الأرض العطشى فتهرول الأغنام ثاغية ويركض الأطفال فرحا وتزغرد كؤوس الشاي في أيدي الفلاحين وبين جفاف واقعها وركوده فتقول :

« ... وتمنيّتُ
بكل حرقة ... بكلّ شوق

لو يحين وقت أمطارنا
لو تأتي عواصفنا
لو تهب رياحنا فتقلع طفيليات أرضنا
لو يزحف طوفاننا.
ويجرفُ كُلّ أوراقنا الذاوية القديمة
وكل أغصاننا المنكسرة العقيمة
ويجرف معي كل أقنعتنا الكرنفالية »

غير أن ما تمنته الكاتبة شيء عسير المنال. تقول في نفس القطعة :

« فهذا مخاضها احتفال بولادة الصفاء والحياة
ونحن مخاضنا عسير ولا يجيءُ ! »

وفي نصّ آخر بعنوان « رسالة الى مدينتي : متى ؟ » ص 50 نجدها تعرّي الواقع قائلة :

« نحن ،
نحترف الخوف والصمت والكسل
والنوم على أرصفة المقاهي
نحن نحترف الكسل
مقابل موت جميل رتيب ».

لكن هذا الواقع الذي وصفته الكاتبة انعكس على مشاعرها الخاصة فتهيّأ لها أن الحياة رفضتها وتتساءل في حيرة : لماذا تهجرها الحياة ؟ وتجيب عن السؤال أنّها ربّما هجرتها لأنها لم تستقبلها بالبخور والشموع والسناجق والقرابين فرفضتها من الوجود. تقول في « رسالة الى بركة الحياة » ص 59 بعنوان « سؤال » :

« يا بركة الحياة !
لِمَ تصفقين أبوابك وتهجرين ؟!
وتغلقي أبوابك السبعة في وجهي
وتطفئي شموعك .....
ترى ؟ هل أقصاك طائر الجحيم عنّي
فأحرقك في سمائي ونثرني بالهباب ؟!
أم أنّني أضعت طريقي اليك
فلم أحرق لك البخور
ولا اشتريت لك الشموع
ولا علّقت السناجق في محرابك
ولا أنشدتُ لك الأشعار أو
قدّمت القرابين.
فجاز لك
أن تحلّي هدر دمي ».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إنّ الشعور بالفشل واليأس واضح في هذه القطعة وهذا الفشل هو من غير شكّ فشل وجودي لأنه لا مبرّر له سوى أنه يحكي فشلا في التجربة الوجودية ذاتها كما كان يفعل معظم الرومانسيين. « وقضى الدهر أن أعيش بيأسي» يقول الشابي.

2 - الأنوثة المضطهدة :

تبدو الأنثى في هذه المجموعة مثقلة بجسدها. انها بسبب هذا الجسد ظلت مسجونة متعبة مقيدة بحبال ثقيلة منذ عهود بعيدة لذلك هي ترفض أنوثتها التي قيدتها

ومنعتها من الانطلاق وجعلتها « فراشا لسيدها ادم » كما تقول الكاتبة :

« محلول الشعر ، نافر الثديين
مثقلا من أيام حواء أتعابا وقيودا وحبالا
مثقلا من أيام الجنّة آثاما وخطايا
لينا ومعطرا
هل يصلح الاّ أن يكون مطيّة ذلولا
وفراشا لسيدي الدائم الخالد آدم ؟! »

« رسالة إلى الموج : تكسر على جسد الأنثى » ص 27

لذلك هي تطلب من موج البحر أن يمحق هذا الجسد العاتي الذي كبّلها من دهور ويغيّر ملامحه ويحوّل إلى حديد صلب قادر على اختراق المدى أو الى تمثال صخري مثلج لا تحرّكه الرغبة فتنهض عند ذاك خفيفة كنسمة « لتطير إلى آفاق السماء »:

« يا موج البحر الهادر !
تحت أقدامك جسدي الهارب اليك
يسجنني يعرقل خطوتي ،
يمتصّ - ليحيا - دمائي ،
تقدّمَ امحق عطره !
وكسّر نتوءاته وامحق رباه !
وخذه واضحا صلبا حديدا .
اليك ، قويا قادرا على أن يخرق مداكَ
ويعبرك - دون أثقال تغرقه في أعماقك -
إلى ضفاف فجر جديد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والاّ فلتكسّر غضبك على جبال همومه
لعلك تقدر أن تجمد شيطان الجسد
وتحوله تمثالا صخريا مثلجا على الدوام
فأنهض وقتها
خفيفة كنسمة
وأركبك حلما أو وهما أو حقّا ساطعا
وأطير الى آفاق السماء
لأرسو ...
على ضفاف المستقبل ».

وفي (رسالة الى رجل يريدني دوما) ص 69 بعنوان : « "حرّة" وأكفر بالدنيا » ترى الكاتبة أن المرأة لا تزال محبوسة كالجني في قمقمه وان ادّعوا أنها « حرّة » وتوحي إليها هذه الصورة بمشهد نبي يطلع عليها يوما ويفتح سدّاد قمقمها فتنطلق عند ذلك طاقتها المكبوتة وتكسّر أغلالها وتطلق أجنحتها وتظلّ تجوب الفضاء بكل حرّية وحينها يضيء - كما تقول الكاتبة - نصف العالم وتنفتح البراعم ويصير الجسد « حديقة رائعة مثمرة » :

« وها أنا حواء « حرّة »
محبوسة في قمقم الجنيّ منذ الأزل
وها أنا ذي
يأكل ليلي نهاري القصير القصير
وفي ظلمة سجني
يرتعش طائر فكري
يضيء مرآة حلمي

فتصفو وتشرق اذ يطلع منها نبي
يلقي صنّارته للقاع ليعلق بها قمقمي
يفتح سدّاده
فأنطلق من فوهة بركاني
طاقة من لهيب
حينها أكسّر حالما أرى النور جدران سجني
وأغلل يدي
وأغلل بطني
وأطعم المقص شعري الذي كبلوني به
وللرياح أطلق أجنحتي
وقتها يضيء نصف الكرة المظلم
وتزهو كل الفصول
ويصبح جسدي حديقة رائعة مثمرة ».

وللكاتبة قصّة في هذا المعنى منشورة بمجموعتها القصصيّة « الطفلة انتحرت » تحت عنوان « الحبال » وموضوعها امرأة تتطلع الى الحريّة وتحاول كسر قيود الماضي الذي كبّلها بحباله تقول ص 95 : « آه يا حبالا دوما في عنقي !.. سيبدأ من الآن معك جنوني فلن يقطعك غير الجنون !.. لن يقطعك غير الجنون ! كانت الكأس تتهشّم بين أصابعي . فيتقاطر دمي على الحقيبة الملقاة الى جانبي عطشى الى الرحيل ».

وبقطع النظر عن هذا الخيال المجنّح والصور الميثيولوجية الخارقة للعادة والملفتة للانتباه فإن الكاتبة تعبّر في الحقيقة عن حصار مأسوي انطولوجي يغمر مشاعرها وكيانها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

3 - الوحدة القاتلة

يركن البطل الرومنسي عادة الى الوحدة والابتعاد عن الناس لينفرد بنفسه ويطلق العنان لخياله المجنّح يحلم بعالم آخر أكثر انسجاما وسعادة من عالمه الأرضي الذي يعيش فيه حقيقة وقد يقوده ذلك الى تخيل أحداث وصور لا تمتّ الى الواقع بصلة أو الى استدعاء حالاتي الحزن والكابة تشفي نفسه المكلومة وكذلك فعلت بنت البحر. تقول في (رسالة إلى حبيب صهدته الشمس) ص 20 :

« أتعلم ؟ أنّك حين تودّعني
بكلّ أدب وحياد
وتمضي إلى مغيبك
يأتيني الليل !
وفي وحدتي
يطرق الحزن أبوابي وأنت معه
وفي وحدتي وسكين الشوق في صدري
أسرع أفتح لك أبواب ليلي
وأسكت ألمي
وفي عمق ليلها العابق بك
حتّى الحزن يصير عذبا
حتّى الحزن يصبح حبيبا »

هي إذن سعيدة بوحدتها وانفرادها كما كان يقول الشابي :

« ليت لي أن أعيش في هذه الدنيا سعيدا بوحدتي وانفرادي. » ولبنت البحر قصتان من مجموعتها السابقة (الطفلة انتحرت) تعالجان مسألة الوحدة ... وحدة المرأة على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وجه الخصوص الأولى بعنوان « من تعب الأيام » ص 37 وفيها تتحدّث عن هواجس امرأة وحيدة مريضة تقاوم الألم والموت والثانية بعنوان « وحيدة مع الليل » ص 49 تتحدّث فيها عن امرأة وحيدة مريضة هي الأخرى يهرب عنها النوم في الليل فتملأ رأسها الهموم وتشعر بقلق شديد وتظلم الدنيا في عينيها فتتراءى لها أشباح مخيفة تتقدّم نحوها وبينما هي كذلك إذ يأتيها صوت ابنتها من بعيد : «أحبك ماما .. أحبك ماما » فتتساءل لماذا تركتها تخرج.

ان الاستنجاد بصورة الطفل في حال اشتداد التوتر النفسي نجده كذلك في هذه المجموعة نقرأ في (رسالة الى طفلة الأمس) ص 72 بعنوان « عودى » قول الكاتبة :

« وها أنا ذي أمتدّ على أخشاب تابوتي
في ذهول وسكون ولا مبالاة
ومن مهاوي الصمت يأتيني صوت طفلة
ناء حزين
أستسلم له يحفر في ذاكرتي جروحا قديمة
وها هو ذا صوتك النائي يا طفلة الأمس
يأتيني
وها أنا ذي من خواء الظلمة وحصار الموت
لا أملك الاّ أن أناديك ».

وعلى هذا النحو بدت الوحدة إحدى السمات الأساسية لهذه المجموعة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

4 - الخـــوف :

من المشاعر المتولدة عن الوحدة الأحساس بالخوف يستولي على النفس فيطوّقها من كل جانب ، ويتطوّر هذا الإحساس الى حالة من الرعب المرهق المفزع كما في هذه القطعة التي جاءت تحت عنوان : « رسالة الى الليل : وحدي أنتظرك » ص 66 تقول فيها الكاتبة :

« وحدي
يتسلقني الخوف
يدبّ راكضا صاعدا يطوّق حنجرتي
يخنقني
وحدي أنتظرك ياليل
فتمدّد بظلمتك ووحشيتك فوقي
وتسحقني بين ذراعي وحشتك ».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتقول في نص بعنوان « رسالة رعب » ص 53

« جنون يركض خلفي في الشوارع
يلبس قناع قنّاص
ويحمل رشاشا وبندقية ومتفجرات
يركض خلفي .. يقفز أمامي وحولي
ويدور كعاصفة فوق رأسي
فأين المفرّ ؟ أين المفرّ ؟!
أغمضتُ عيني أطرد الكابوس
وفي الظلمة المبينة
رأيت لغما في رأسي ينفجر فجأة

يتطاير دمي حارا دافقا
تنقذف الشظايا حادة مرعبة
تنغرس في الأرض
وتغرقها دما ».

وحدة قاتلة .. وخوف مخنق .. وليل موحش .. ورعب يحاصر الكاتبة من كل جانب « يقفز أمامها وخلفها وحولها ويدور فوق رأسها كما تدور العاصفة » لم كل هذا الخوف المحطّم للذات ؟ لا نجد سببا واضحا أو مبرّرا مشروعا لهذه الحالة الاّ أن تكون أثرا من اثار الرومانسية واحتذاء لطريقتها في التعبير عن أزمتها الوجودية.

5 - التعبير عن الحزن

الحزن حالة لصيقة بالنفس تدفعها الى بثّ شكواها والتعبير عن لواعجها الحارة فيصبح هو والنفس شيئا واحدا. هذه الصورة من التباهي عبّرت عنها الكاتبة في «رسالة الى الليل : وحدي أنتظرك » ص 66 بقولها :

« وحدي أحزن
يملؤني الحزن ، يشربني
يمتزج بي ، بخيوط المطر
فإذا أنا الحزن
أنا الوهم الهامي من السماء »

بهذا الأسلوب تستعذب الكاتبة حزنها إنه حزن يولد من حزن. لذلك أصبحت تستأنس به وتطلب منه أن يسكنها ويغوص في أعماقها أكثر وعزّ عليها أن تلقيه خارج ذاتها بعد

أن تمكّن منها. إنه سبب من أسباب وجودها. تقول في «رسالة الى صديقي الحزن » ص 60 بعنوان « لا تخش عليّ الغرق »:

« وأغمض عيني !
وكأنه عزّ عليه أن يلقيك البحر خارج ذاتي
عزّ عليّ !
فها أنت تعود وتستقرّ – كما كنت دومالتفتح فجوة في جدار السكون
وها أنت تعود عاشقا وفيا دائما لا يخون
فابق يا حزن !
اسكني ! وغص أكثر في أعماقي !
وافتح أبواب الليالي !
واتركني أستشعر لذة الاحتراق
واتركني استشعر لذة الانصهار
والإبحار في الوجع المضيء
غص في أعماقي أكثر أيها الحزن !
فأنت الحبيب الذي لا ينسى
غص بي في أعماق المجهول !
لا تخش عليّ الغرق
فأنا عندما أغرق أكون »

فهل يمكن للمرء أن يتصوّر أبعد من هذه المازوشية وهذا الجلد للذات ؟

انّ هذا الحزن قد سكنها وهي لا تزال بعد طفلا رضيعا :

« من أين أقبلت أيها الحزن ؟
أية ريح حملتك إلى خطاي ؟
وأنا أرفرف في الطريق
والشمس في ثغر السماء
والصباح طفلا رضيعا لا يزال ! » ص 60

سكنها .. فأطفأ شمسها وأطال الجدران السوداء أمامها وقصّ أجنحتها المرفرفة فاذا بها في القاع واذا به في القلب:

« تطيل الجدران السوداء ، تمدّدها
حتّى تصبح عملاقة مؤذية
وتقصّ أجنحتي المرفرفة
فإذا أنا في القاع
وإذا أنت في القلب » ص 60-61

تصف الكاتبة هذا الحزن بأنه « كثيف عميق وخانق » وأنها مهما حاولت أن تستأصله عنها فلا تستطيع لأن جذوره انغرست في أعمق أعماقها :

« من أين أقبلت ؟ كثيفا عميقا وخانقا ،
أحاول أن أمدّ يدي تستأصل هذا الشوك الغريب
النامي الذي يغرس جذوره سهاما في أعمق الأعماق
أمدّ يدي
ولكن - رغم الألم - يدي تتقلّص ...
تصغر ... تصغر ...
وتخرج مهزومة راعشة
يدفعها بحر هادر من دموع » ص 61

فلا بأس حينئذ أن تشفي غليلها بالبكاء فالبكاء ارتواء للنفس وتطهير لأدرانها أمّا عدم البكاء فانه مدعاة لجفاف النفس وشحوب الوجه وقد جفّت نفسها فعلا وشحب منها الوجه ولكن الدموع ظلت مع ذلك شخصية :

« قابلني وجهي
كان جافاً وشاحباً قبيحا
جفّ وجهي وجفّ وجه الأرض
ليتني أبكي !
ليتني !
ولكننا فقدنا عصر الدموع
حتّى اشتقنا الى رواء الدمعة !
وها نحن فقدنا القدرة !
حتّى القدرة على البكاء !
أأركع أستجديك يا دموعا
صارت أغلى من أجمل لؤلؤة في يد أحلى أميرة ؟
ها أنا ذي أستجديك !
لتعودي مرّة حارة كأحزاني
عودي لتتطهّر كلماتي في حرارة جمرك
ها أنا ذي أستجديك يا دمعتي !
.... فهل ترحمين ؟! »

« رسالة الى دمعة : في زمن الجفاف » ص 37

وفي « رسالة غير مباشرة الى الشمس : موسم الجفاف » ص 44 تقارن الكاتبة بين الأرض العطشى التي ارتوت بنزول المطر وبين نفسها المتكلسة التي بقيت على جفافها تقول :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« تنهمر ... تنهمر ... تنهمر ...
تفرح الأرض العطشى
وتضيع طيبها
ولكنّي أعجز عن دمعة واحدة
تخفف حمل النفس وتروي جفافها وتطري يبسها »

ولو سألنا الكاتبة عن سبب هذا الحزن الدفين ؟ لأجابتنا : إنها الذكرى ... والذكرى الأليمة على وجه الخصوص وفعلا فالذكرى تحاصرها في كلّ آن وحين أينما اتجهت كمرايا متقابلة تنعكس عليها صورة نفسها الحزينة كلما نظرت اليها فتذكرها بماض أليم :

« أقول للذكرى :
لا تفتحي بوّابة أحزاني
لا تنشري أغطية الذكرى
فتفوح منها روائح الكافور »

(والكافور هو كما تبيّن ذلك الكاتبة أسفل الصفحة 81 ما « يطيب به الميّت قبل تكفينه »)

اصمتي أيتها الذكرى
ساعة فقط من عمر الزمن الطويل الطويل
واتركيني للنسيان
ساعة فقط من عمر الزمن
فإنّي ، أيتها الذكرى العزيزة
لا ماض يؤويني
لا مهد يهدهدني
لا مهرب لي
الاّ ، والمرايا فيه
تلقيك اليّ » ص 81-82

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وللكاتبة قصّة بعنوان « حلم » من مجموعتها « الطفلة انتحرت » ص 55 تحكي عن امرأة هربت من مرضها وأدويتها المنوّمة للإقامة بنزل فاخر وهناك جلست وحيدة على المائدة وأخذتها الذكرى بعيدا الى حبيبها الذي ذهب ولم يعد منذ عشر سنوات فتتخيله يخاطبها ويمدّ يده اليها ويراقصها في تلك الليلة الجميلة على أنغام الموسيقى الحالمة فتشع بحلم دافئ لذيذ يسري في كيانها .. ثم ينتهي الحلم وتفيق على أنغام الموسيقى الصاخبة التي تنبعث بين أرجاء النزل كأنها إبر تنغرز في رأسها المريض وتفتح عينيها فلا تجد فارس أحلامها أمامها على نفس المائدة كما تخيلته في الأول. تقول الكاتبة إنه لم يعد « غير ذكرى .. كأسا يغرق فيها المرض والفراغ لحظات ». ونعود الى موضوع الحزن حيث تصف الكاتبة في « رسالة ثانية الى الحزن » بعنوان « اتركني » ص 63 صراعها المرير القاسي مع الحزن الذي نخر منها العظم وسطّح نظراتها للأشياء وبعث في نفسها الوحشة وأطفأ النور في عينيها وأفسد عليها طعم الأشياء « فسد طعم الأشياء » كما تقول في « رسالة الى دمعة » ص 37 .. لذلك ترجوه أن يبتعد عنها ويتركها ويفكّ قبضته عليها بعد أن صارت دموعها طوفانا وانفتحت فيها الجروح واستبدت بها الظلمة :

« لِمَ كل هذا الحزن يثقب حتّى العظم ؟
محل هذا الحزن الصّقيع يجمّد قطرات الضوء
القليلة المتبقيّة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم كل هذا الحزن يسطّح كلّ الأشياء ؟
فلا عمق ولا أبعاد ولا قيمة متبقية لشيء !
يتسلّل اللحن الموحشُ حتّى شراييني !
ويغوصُ في كل خلايا جسدي !
ويُطفئُ النجومَ والأقمارَ ومصابيح الطريق
الآن !
أيها الحزن الذي طالما دعوتُهْ
أيها الحبيب الذي طالما سكرت معي
أيها الحبيب الذي طالما أغواني فأطعته
الآن فقط أقول لك :
أيها الحزنُ اتركني !
خلّصني من شباكك
فالدمع في المآقي صار طوفانا
وكؤوسك انكسرت على جروحي
فانفتحت فائرة الدم ، فائرة الوجع
والصقيع يبطئُ دقّات قلبي
والريح تعصف بي
ورأسي يدور ويدور
والأشجار تطير
والظلمة تغوص في قلب الأرض
فألقني يا سيدي الحزن !
ألقني من شباكك !
فإنك ما عدْت حبيبي !
وما عادت المزق تصلح لعناقك »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نعم إنها حالة من العدمية والعقم « لا عمق ولا أبعاد ولا قيمة متبقية لشيء » كما تقول الكاتبة نفسها. حالة تشل ارادة الإنسان وتوقف حركته وتطوّح به بعيدا في متاهات العجز والإعجاز.

6 - الإحساس بالموت

كما باعد الإحساس بالعدمية لدى الكاتبة بينها وبين حياتها العملية وواقعها المادي حتّى انطوت على نفسها ولبست جلباب الموت. تقول في « رسالة الى نورك » :

« وحين يطلع النهار
أنزل ألبس كفني وأقنعتي
ونعود نمشي - كآلات ميتة - على التراب » ص 14

وتقول في (رسالة الى دمعة) ص 37

« ... والصباح يسلّط أضواءه
فسد طعم كل الأشياء.
هكذا فسد كل شيء بلا سبب
بلا ضجيج بلا ضوضاء
واذا هو الحصار !
فأين المفرّ ؟! »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعلى هذا النحو يصبح النهار زمن الموت والعدم ويصبح العمل والكدّ في الحياة صورة من صور الموت وتصبح المدينة مقبرة والحافلات نعوشا متنقلة بالناس. تقول في (رسالة إلى الموت) بعنوان « حين يدقّ نافذتي النهار » ص 32 :

« حين يدقّ نافذتي النهار
تأتيني أيها الموت
لابسا جلبابك الأسود
وعلى أكتافك ملفّات الأعمال
وعلى جبينك جدول أوقاتي
وعلى شفتيك المحروقتين :
- صباح الموت ! يا ابنة الليل !
وأقوم ألبس كفني
وأحمل شاهدة قبري
وأسير في مقبرة المدينة المزدحمة
يحملني مع القطيع
نعش حافلاتك المعبّأة
تشق أيها الموت جمجمتي
وتفرغ رأسي
وتحشوه قشا وغبارا وهبابا »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويبلغ الإحساس بالموت ذروته في (رسالة إلى طفلة الأمس) بعنوان (عودي) ص 72 حيث تقدّم الكاتبة صورا حسيّة للميّت وهو مسجّى ، ممتدا على تابوته غارقا في ظلمة الليل وسكونه جثّة باردة هامدة بلا حراك وتتساءل كيف «يمسك الموت بكل تلابيب الحياة فيها ويقتل احساسها حتّى بالألم » تقول :

« جرف الليل المدينة
وجر فني إلى قاعه
وقيدني بسلاسل الصمت
وبرودة الموت
واستبدّت بي الظلمة الفاجرة
وجئتي مسجاة ساكنة صامتة
وها أنا ذي أمتدّ على أخشاب تابوتي
في ذهول وسكون ولا مبالاة
وأندهش
لهذا الجسد الأنثوي الرخام
ولرفّة الموت في بقاياي
هل أمسك الموت بكل تلابيب الحياة في جسدي ؟
وقتل حتّى احساسي بحرّ الألم الموقظ - الكاوي -
وتركني لصمت الرتابة وثقل الظلمة
ومشية الموت ! ».

وتقول في رسالة ترثي فيها والدها بعنوان « كلمات أخيرة » ص 41 :

« حين تنهش الشياطين جسدي
وتلعب به الرياح الأربع
يبدو زورق الموت قادما
يمدّ اليّ جسوره
ويسري بي الى متاهات مجهولة ممتدة

ويقرّ بني منك يا أبي !
فهلاّ منحتني بعض صبرك وبعض قوّتك
علّي أواجه ساعاتي الباقية
وأقدر على حزم حقائبي قبل الرحيل ؟!

تذكّرنا هذه الشواهد لبنت البحر بالنصّ الذي سقناه في بداية هذا العرض لابنة الضاحية واذا كانت هذه الأخيرة قد وقفت في حدود البكاء وطلب الموت فإن بنت البحر قد تلحفت بأرديته وجسّمته صورة مادية حسيّة رهيبة تذكرنا بالصورة الحسيّة للموت في زهديات أبي العتاهية.

إنها الفجيعة ورمي السلاح وفقدان الإيمان بالحياة.

هذه ملامح الصورة التي رسمتها لنا الكاتبة للتعبير عن أزمتها الوجودية الخانقة حاولنا أن نستعرضها في فقرات مستقلة مع شواهدها حتّى تبدو من خلالها توجهات المجموعة وسماتها العامة واضحة لدى القارئ.

فكيف عالجت بنت البحر هذه الأزمة وبأي شكل حاولت تجاوزها والخلاص منها ؟

ب - أشكال تجاوز الأزمة

يمكن القول إن « الهروب » كان السمة الأساسية لثلاثة أشكال من التجاوز اختارتها الكاتبة هي :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- الحلم
- التحليق في العالم العلوي
- تجاوز الواقع بواسطة الفنّ أي الكتابة.

وقد ذكرت الكاتبة نفسها لفظة « تجاوز » في الرسالة الثالثة من (رسائل إلى مشرق الشمس) ص 7 وتعني بذلك حبيبها السماوي مصدر وحيها وينبوع إلهامها ومبعث الفنّ في نفسها وسنرى ذلك بالتفصيل عندما يصل بنا الحديث إلى الشكل الثالث من أشكال التجاوز. تقول :

« يا جنونا عذبا سكنني وأسدل عليّ الستار !
يا تجاوزا مدهشا يحرّك بركة الركود والكدر ». ص 7

يتبع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سومرست موم

تعريب

محمد بلحاج صالح

- خادم الكنيسة -

مازال ألبِرْتْ اِدْوَردْ فورْمانْ يلبس الرداء الكنسي بعد التعميد الذي وقع في كنيسة سانت بِيترْ بِنِيفيلْ سكْوَارْ في ذلك المساء . وقد احتفظ بردائه الجديد للجنائز والأعراس. ومازالت طيّته سميكةً وخشنة، كأنها لم تنسج من صوف بل من نحاس. فقد كانت كنيسة سانت بيتر بنيڤيل سكوار مفضلةً من قبل أهل الطبقة العليا في هذين النوعين من الاحتفالات، وهو الآن يلبس رداء أقل أهمية من ذلك. لبسه راضيا لأنه رمز عمله الجليل، وكان كلما نزعه ليذهب الى داره شعر بالارتباك وكأنه غير لابس لباسا مناسبا. وكان يكلف نفسه مشقة كيّه بنفسه. وقد اكتسب خلال السنوات الست عشرة التي عمل طَوالها في الكنيسة أردية عديدة تشبه ذلك الرداء. ولكنه لم يستطع أن يتخلّص منها، فعندما تتمزق يلفُّها في ورق أسمر ويحتفظ بها في المجرات السفلى من دولاب غرفة نومه.

كان الخادم يعمل بهدوء، ويعيد وضع الأغطية الخشبية المصبوغة فوق الأجران (1) المرمرية ويأخذ بعيدا كرسيا قدم إلى عجوز عاجزة، وهو في الوقت نفسه يترقب القسمين

---

1) الجرن : حوض الماء المقدس في الكنيسة الكاثوليكية. (المترجم)

حتى ينتهيَ من عمله داخل غرفة الاجتماعات لينظمها ويغادر إلى بيته . وبعد قليل رآه يعبر الهيكل (1)، ويحني ركبتيه أمام المذبح (2) . ثم ينزل الى الممر، ولكنه مازال يلبس رداءه .. فخاطب الخادمُ نفسَه «ماذا ينتظر ؟ ألا يعلم أنني أريد شايي (3)؟»

لم يمض وقت طويل على تعيين القسيس، وهو رجل أحمر الوجه وحيَوي، في أوائل الأربعينيات. وما زال البرت إدورد يأسف على القسيس السابق، الذي ينتمي الى المدرسة القديمة، فيعظ بخطب متمهلة، وصوت مليء وكثيرا ما كان يتغدى مع المترفين من أبناء كنيسته. وقد أحبّ أن تكون الأشياء في الكنيسة منظمةً، ولكنه لم يثر خصاما أبدا، فلم يكن مثل هذا الرجل الذي يحب أن يتدخل في كل صغيرة وكبيرة. ولكن البرت ادورد كان واسع الصدر. تقع كنيسة سانت بيتر في منطقة تسكنها الطبقة العليا. وقد جاء القسيس الجديد من إيست إنْدُ (4)، ولا يتوقع منه أن يتقبّل مرة واحدة طرق مصلّيه المتحفظة من أهل الطبقة الراقية.

قال البيرت إدورد : «كلّ هذا عمل سريع ، ولكن أعطه فرصة سيتعلم». وعندما مشى القسيس الى أسفل الممرّ حتى

---

1) الهيكل : موضع في صدر الكنيسة يقرّب فيه القربان (م)

2) المذبح : المكان الذي يقام فيه القداس (م)

3) كان الخادم يتكلم لهجة عامية.

4) منطقة الإيست إند : هي منطقة شعبية عتيقة بلندن أشبه بمنطقة باب سويقة بتونس (م)

أصبح قريبا من الخادم بحيث أصبح بالامكان مخاطبته دون أن يرفع صوته أكثر من اللائق في مكان عبادة. توقف. «فورمان، الا يمكنك القدوم الى غرفة الاجتماعات لحظة، فعندي ما اقوله لك». «حسنا يا سيدي».

وانتظره القسيس ليأتي، وسارا في الكنيسة معًا فقال الخادم :

«كان التعميد (1) جيّدا يا سيدي، غريب ! كيف توقف الطفل عن البكاء فيّ اللحظة التي أخذته فيها!.

فقال القسيس بابتسامة خفيفة. « لا حظت أنهم كثيرا ما يفعلون، ولا سيما أنني قد تدربت على أخذهم».

كان ذلك ما يجعله يشعر بالفخر، فقد كان دائما قادرا على تهدئة الطفل الباكي بسبب الطريقة التي يمسكه بها ، ولم يخف عليه الاعجاب والتقدير الذان تبديهما الأمهات والحاضنات نحوه وهو يضع الطفل في ثنية ردائه. والخادم يعرف أن مدحه على مقدرته سيسره.

سبق القسيس البرت أدورد الى القاعة. وقد فاجأ البرت أدورد قليلا وجودُ وكيلي الكنيسة هناك. إذ لم يبصرهما يدخلان . فأشارا اليه بتردد. فقال للاول ثم للثاني : «مساء الخير يا سيدي مساء الخير يا سيدي ». كان الوكيلان كهلين، وقد قضيا في وكالة الكنيسة مدة تقارب

---

1) التعميد : احتفال يقع فيه رش أو تغطيس المعمّد في الماء حتى يصبح عضوا في الكنيسة المسيحية ، وفي الغالب يعطي له اسم أو اكثر زيادة على اسم أسرته (م).

المدة التي قضاها البرت إدورد في الخدمة. وكانا يجلسان إلى منضدة جلبها القسيس السابق منذ سنوات من ايطاليا، وجلس القسيس على الكرسي الفارغ بينهما. واجههما البرت ادورد، تفصله عنهم المنضدة . وتساءل بشيء من الخوف عن جلية الأمر. وتذكر المناسبة التي حدثت فيها مشاكل لعازف الأرغن، وكل ما حصل بقي سراً. ففي مثل كنيسة سانت بيرت بنيقيل سكوداً لا يمكنهم تحمّل القيل والقال. وظهرت على وجه القسيس الأحمر علامات الرقة ، ولكن الآخرين كانا يحملان تعبيرا يوحي ببعض القلق.

قال الخادم لنفسه : «كان يضايقهما ، لقد أجبرهما على فعل شيء لا يريدان فعله. ذلك كل ما في الأمر، انتبه وستعلم.

ولكن أفكاره لم تبد على وجهه الواضح القسمات. فوقف باحترام دون خنوع. فقد كان من قبل في الخدمة في الدور المشهورة لا غير قبل تعيينه في الادارة الكنسية ولا عيب في تصرفاته. بدأ خادما في دار أمير تارة، ترقّى من خادم الدرجة الرابعة الى خادم من الدرجة الأولى، وبقي سنة يعمل وحده رئيسا للخدم عند أرملة نبيلة، وإلى أن حدث شغور في سانت بيتر كان يعمل رئيسا لخادمين في دار سفير متقاعد». كان طويلا، ونحيلا، وجديا، وجليلا. وإذا لم يكن يبدو مثل دوق (1) ، فهو على الأقل مثل ممثل من

---

1) الدوق : يعني في بريطانيا وبعض البلاد الأخرى رتبة نبيلة وراثية تحت رتبة الأمير ، (م).

المدرسة القديمة متخصص في الأدوار التي تمثل الدوق. عنده براعة وحزم وثقة بالنفس . فلا يشك احد في شخصيته.

بدأ القسيس بلطف :

« فورمان ! عندنا شيء غير سار سنقوله لك. لقد قضيت هنا سنوات عديدة وأظن حضرته والرئيس يتفقان معي في أنك قد قمت بواجبات عملك خير قيام مِمَّا أرضى الجميع » فأومأ الوكيلان بالموافقة. واستطرد القسيس يقول : « ولكنني سمعت في يوم سابق بحالة غير عادية، ورأيت أن من واجبي إعلام الوكيلين بذلك. لقد اكتشفت باستغراب أنك أمّي ».

فلم تظهر على وجه الخادم أيّ علامة تدل على الحرج، وأجاب » «القسيس السابق يعلم ذلك يا سيدي، وقال إن ذلك لا يهم. وكان يقول دائما إن في العالم ثقافة أكثر مما يجب».

فصاح الرئيس «لم أسمع في حياتي بشيء مذهل كهذا ».

«هل تعني أنك قضيت ست عشرة سنة خادما بهذه الكنيسة ولم تتعلم القراءة والكتابة»

« ذهبت الى العمل وعمري اثنتا عشرة سنة يا سيدي، فَحَاول الطباخ أولا تعليمي مرة، ولكن يبدو أنني لم أكن مستعدا لذلك، ثم بقيت أنتقل من شيء الى آخر فلم أجد الوقت أبدًا. ولم أجد أبدًا الرغبة في التعلم . واعتقد أن هؤلاء الشباب يضيعون كثيرا من أوقاتهم في التعلم، وكان

بامكانهم القيام بأشياء أخرى مفيدة».

فقال الوكيل الآخر «ولكن ألا تحبّ أن تعلم الاخبار، ألم تحاول مرة واحدة أن تكتب رسالة »

«لا ، لست انا يا سيدي، يبدو أنني أقوم بعملي خير قيام دون ذلك ، وفي السنوات الأخيرة صارت كل هذه الصور في الصحف وعلَيَّ معرفة ما يجري معرفة حسنة، وزوجتي مثقفة جدا، فاذا أردت كتابة رسالة فهي التي تكتبها لي، فالأمر لا يبدو وكأنني رجل مغلوب على أمره».

نظر الوكيلان الى القسيس نظرة قلقة ثم طأطآ رأسيهما.

وواصل القسيس.

«حسن يا فورمان، لقد ناقشت الموضوع مع هذين السيدين وهما يتفقان معي كل الاتفاق على أن الحالة لا تحتمل. فلا يمكن ان يكون لنا في مثل كنيسة سانت بيتر بنيڤل سِكْوَارْ خادم لا يعرف القراءة والكتابة».

فاحمرّ وجه البرت إدورد النحيف الشاحب، وتحرك على قدميه بتثاقل، ولكنه لم يجب.

« افهمني يا فورمان، ليس عندي شيء ضدّك. فأنت تقوم بعملك على أحسن وجه، ورأيي في شخصيتك ومقدرتك حسن، ولكن ليس من حقنا المخاطرة بما قد يحصل من حوادث نتيجة لجهلك المؤسف، فالمسألة مسألة تفكير وكذلك مسألة مبدأ».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فسأل الرئيس «ألا تستطيع التعلّم يافورمان؟ »

«لا، يا سيدي، انني آسف لأنني لا أستطيع، ليس الآن. فكما ترى : إنني لم أعد شابا، وإذا كنت غير قادر على جعل الحروف في رأسي وأنا طفل فلا أظن أنني قادر على ذلك الآن».

فقال القسيس : «نحن لا نحب أن نكون قاسين معك يافورمان، ولكنّ الوكيلين وأنا قررنا منحَكَ ثلاثة أشهر، وإذا لم تصبح في آخر هذه المهلة قادرا على القراءة والكتابة فلا بدّ لك من المغادرة».

لم يجب البرت إدورد القسيس الجديد أبدا. لقد قال منذ البداية إنهم قد أخطأوا عندما أعطوه سانت بيتر، فهو ليس من ذلك النوع من الرجال الذين يريدونهم لجمهور الطبقة العالية، والآن اعتدل قليلا. فهو يعرف قيمته، وسوف لا يسمح لأحد بأن يخدعه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«آسف جدا ياسيدي، فلا فائدة . فالتعلّم في الكبر كالنقش على الماء. فقد عشت سنوات عديدة دون أن أعرف كيف أقرأ أو أكتب، ولا أرغب في مدح نفسي، فان مدح النفس مكروه، ولا مانع من ان أقول إنني قد قمت بواجبي وحالتي تلك، فجلبت إليّ ثناء وعطف الكنيسة فرفعا من شأني، وإذا أمكنني التعلّم الآن فأنا لا اعرف إن كنت أرغب فيه أم لا».

«وفي هذه الحالة يافورمان، آسف ان اقول : لا بد لك من المغادرة».

«نعم يا سيدي، واضح جدا وسأكون مسرورا بذلك . وسوف أستقيل حالما تجد من يعوضني».

ولكن عندما أغلق البرت إدورد باب الكنيسة بلطفه العادي خلف القسيس والوكيلين لم يستطع الابقاء على صورة الجلال الهادىء الذي به تحمل الضربة التي نزلت عليه فارتعشت شفتاه، ومشى الهوينى راجعا الى غرفة الاجتماعات، وعلق رداءَ عمله على مشجبه. وتنهد وهو يتذكر الجنائز الفخمة، والأعراس الانيقة التي شاهدها ذلك الرداء . فرتب كل شيء ، ولبس معطفه وأخذ قبعته بيده ومشى نازلا في الممر. أغلق باب الكنيسة خلفه، ومشى عابرا الساحة، ولكنه غرق في أفكاره السوداء ، فلم يسلك الطريق الذي اعتاد سلوكه الى الدار، حيث ينتظره كوب من الشاي القوي اللذيذ، بل سلك المنعرجات البعيدة عن طريقه. ومشى متمهلا نحو الدّار. وقلبه مثقَلٌ بالهموم. ولم يعلم ماذا سيفعل مع نفسه. فلم تعجبه فكرة الرجوع الى الخدمة بالبيوت، بعد ان كان سيد نفسه مدة سنوات، وليقل الوكيلان والقسيس ما يريدون فهو الذي كان يسيّر سانت بيتر بنيڤيل سكوار. ومن النادر أن يحط من نفسه بقبول وضع معين . فهو قد احتفظ بمبلغ لابأس به من المال ولكنه لا يكفي ليعيش به دون أن يقوم بعمل مّا ، ويبدو ان الحياة تكلف أكثر كل سنة. ولم يخطر بباله أبدا ان مثل هذه الاسئلة ستقلقه. فَخَدَمَةُ سانت بيتر مثل بابا روما يعينون هناك مدى الحياة. وكثيرا ما فكر في الذكر الحسن الذي يمكن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أن يذكره به القسيس في احتفال صلاة المساء في الأحد الأول بعد مماته، ذاكرا الخدمة الطويلة والمخلصة، والشخصية المثالية للخادم الراحل البرت ادورد فورمان. فتنهد بعمق. ولم يكن البرت ادورد يدخن ولا يشرب الكحول اطلاقا، ولكن في نطاق ضيق، يتناول مثلا كأسا من الجعة مع عشائه، وعندما يكون تعبا يرغب في تدخين سيجارة. وخطر له الآن أن سيجارة ستخفف عنه وبما أنه لا يحمل السجاير نظر حوله باحثا عن دكان حيث يمكنه شراء علبة جولد فليكس، فلم ير أمامه واحدا فسار قليلا، وكان الشارع طويلا فيه كل أنواع الدكاكين ولكن لا يوجد دكان واحد حيث يمكن للمرء شراء سجاير.

قال البرت ادورد : «هذا شيء غريب».

وحتى يتأكد مشى في الشارع مرة أخرى ، لا يوجد شك في هذا. وقف ونظر يتأمل إلى أعلى وإلى أسفل.

وقال : «لست الرجل الوحيد الذي يمشي في هذا الشارع ويريد سجاير، ولا عجب ، ولكن المرء قد يجد بدكان صغير هنا. سجاير وحلويات».

عجب ، ولكن المرء قد ينجح بدكان صغير هنا. سجاير وحلويات».

فقفز قفزة صغيرةوقال: «هذه فكرة، غريب كيف تقدم الاشياء الى المرء وهو لا يتوقعها ابدا».

استدار، ومشى نحو الدار، وتناول شايه.

قالت زوجته : أنت صامت هذا المساء يا البرت».

فقال : «أفكر».

فكر في الموضوع من جميع نواحيه، وفي اليوم التالي ذهب مباشرة الى الشارع، وبصدفة جميلة وجد دكانا صغيرا للايجاره وبدا أنه هو الدكان الذي يناسبه. وبعد أربع وعشرين ساعة أجره ، وبعد شهر غادر سانت بيتر بنيقيل سكوار دون رجعة، وبدأ البرت ادورد تجارة بيع السجاير والصحف والمجلات. فقالت زوجته انه لأمر مزعج أن تنحط بعد أن كنت خادم كنيسة سانت بيتر، ولكنه أجاب بأنه يجب على المرء مسايرة الزمن، وبما أن الكنيسة لم تبق على ما كانت عليه فعليه هو أيضا أن يعطي كل ذي حق حقه. ونجح ألبرت ادورد نجاحا طيبا، بل وفق كل التوفيق، حتى أنه بعد ما يناهز السنة او الاثنتين انتبه الى أنه يمكنه أخذ دكان آخر ويضع فيه مديرا. فبحث عن شارع طويل ثان دون بائع سجاير، وعندما وجده ووجد دكانا للايجار آجره وملأه بضاعة. ونجح هذا ايضا . ثم خطر بباله أنه اذا كان قادرا على الاشراف على اثنين فيمكنه الاشراف على ستة، ولذا بدأ يسير حوالي لندن وحيثما وجد شارعا طويلا دون بائع سجاير ودكانا للايجار اجره. وفي مدة عشر سنوات تحصل على ما لا يقل عن عشرة دكاكين، فأغدقت عليه الاموال. وفي كل يوم اثنين يمر بها جميعا فيجمع ما تحصل خلال الاسبوع ويودعه في البنك.

وفي صباح أحد الايام وهو يدفع حزمة من النقود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الورقية وكيسا ثقيلا من النقودالفضية، اعلمه القابض أن المدير يريد مقابلته، واقتيد الى غرفة المدير فصافحه ، «ياسيد فورمان، أريد أن أتحدث اليك عن المال الذي أودعته عندنا. هل تعرف بالضبط كم هو ؟ »

«لا اعلم بالضبط، ولكن عندي فكرة عامة».

«فباستثناء ما اودعته هذا الصباح، فهو ما يفوق الثلاثين الف جنيه. وهذا مقدار ضخم تودعه، وأرى انه من الاحسن أن تستثمره».

لا أريد أن أخاطر يا سيدي، انا أعلم انه محفوظ في البنك».

«لا داعي للقلق إطلاقا. فسنوفر لك قائمة بالاستثمار الآمن. وهم سيقدمون اليك نسبة ربح احسن مما نستطيع نحن تقديمه».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فظهرت على ملامح وجه السيد فورمان المميز نظرة انزعاج فقال : «ليست لي معرفة إطلاقا بالسوق المالية ولا الاسهم، وعلي أن أترك الأمر كله بين يديك»

فابتسم المدير «سنفعل كل شيء. وكل ما ستفعله في المستقبل هو أن توقع على التحويل».

فقال البرت دون أن يكون متأكدا : «أستطيع فعل ذلك بسهولة، ولكن كيف أستطيع أن أعرف ماذا أوقع؟».

فأجاب المدير ببعض الحدة : «أظن أنك تستطيع أن تقرأ».

فابتسم اليه السيد فورمان ابتسامة مهدئة.

«حسنا، يا سيدي، تلك هي المشكلة. لا أستطيع. أعلم أن هذا يبدو مضحكا، ولكن ذلك هو الأمر. انا لا اقرأ ولا أكتب. أعرف اسمي فقط. وتعلمت ذلك عندما بدأت التجارة».

ففوجيء المدير مفاجأة كبيرة. فقفز من كرسيه وقال :

«لم أسمع اغرب من هذا»

«الأمر هكذا يا سيدي، لم تتح لي الفرصة إلى أن فات الوقت. ثم بطريقة او بأخرى لم استطع، فأنا عنيد».

نظر اليه المدير وكأنه ينظر إلى وحش من فترة ما قبل التاريخ.

«هل تريد أن تقول إنك كونت هذه التجارة الهامة، وجمعت ثروة تقدر بثلاثين الف جنيه دون أن تكون قادرا على الكتابة والقراءة؟ يا إلهي، يا رجل، فماذا تكون الآن لو كنت قادرا؟».

فقال السيد فورمان، وابتسامة صغيرة على وجهه المترف «أستطيع أن أقول لك ذلك يا سيدي، لو تعلمت القراءة والكتابة لكنت الآن خادما في كنيسة سانت بنڤيل سِكْوارْ».

محمد بلحاج صالح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ربيعة الفرشيشي

- الشجرة المحكمة -

... أفكّر أحيانا أنّي لست كالجميع ... ألعاب الأطفال لا تغزيني بخوضها ... عندما كنت صغيرا ما كنت أشاركهم البعض منها ... كان يحلو لي أن أراهم يجرون ، يسقطون يتشاجرون ، يلعبون من جديد وكأنّهم ما كانوا في خصام منذ قليل. في لعبة « التماثيل» أتقمّص دور الحكم يدور الصّغار حولي وكلّ منهم يقوم بالحركات التي يريدها وعندما أصفّق يقفون حيث هم لا يتحرّكون وكأنّهم تّماثيل محنّطة ، عندها فقط أشعر بفرح غريب وأنا أتأمّلهم واحدا واحدا : الأول يقف فاتحا يديه الى السّماء متضرّعا مغمض العينين. والثاني ينظر صامتا متحدّيا يكتم ضحكته التي توشك على الهروب منه. والرابع يجثو على ركبتيه ووجهه إلى الأرض يبحث عن شيء ما. والسابع يفتح فمه وقد خرجت منه الضّحكة ولم تعد الى مكمنها وكان عليّ أن أختار أجمل تمثال ليحلّ مكاني إلاّ أنّي كثيرا ما أتلكّأ في الاختيار حتىّ أبقى الحكم بينهم. وكأنّهم تفطنوا الى اللذّة التي أجدها في لعبتهم تلك فنصّبوني حكما دائما بين التّماثيل المتنقلة ... أذكر أيضا أنّ أحدهم نال عقابا شديدا لأنه امتثل لقواعد اللّعبة، فقد ناداه أبوه أثناء تقمّصه للتّمثال ولم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يلبّ النّداء ، لأنّه لو تحرّك من «نصبه» لَحُرِمَ من اللّعبة كامل اليوم ... طفل آخر حرمه أبوه من اللّعب . كان يتقاذف الكرة مع صبيان مثله. أراد أن يمسك بها فسقط على الأعشاب ، أعجبته اللّعبة ، تساقط ثانيا ، وثالثا وسابعا تلوّثت كسوته ناداه أخوه ، التفت إليه ، ابتسم ، واصل لعبه مطمئنًا ، ناداه من جديد ، جرى وراء الكرة ، لحق به ، أمسكه في عنف ، أدخله السّيّارة ، أغلق بابها ثمّ عاد إلى قهوته يلتذّها في صمت ... أكاد أسمع شهيق الصّبيّ من وراء البلّور ، عيناه المشبعتان دموعا تغرقانني ، أحسّ المرارة بفمي وحلقي. عندما كنت أبكي وكثيرا ما كنت أبكي وأنا صغير - لا أحد يجفّف دموعي ، كانت تعلق بوجهي طويلا ، وكنت أطيل إليها النّظر في المرآة ، تعجبني تقاطيعي الكئيبة ... أحاول التّعرّف على وجهي الآخر ، يختفي وراء الدّموع ، يخجل من الظّهور عاريا أمامي ... وقفت في مكاني ... نظرت إلى الصبيّ داخل السّيارة، وقد غطّ في نوم عميق ... حتما انّه يحلم باللّعب الذي حرم منه في أوج نشوته به ... رياح الخريف الأولى تلسع وجهي ، ارتحت الى برودتها تسري في جسمي يقينا دافئا ، أسرعت الخطى ... قطرات المطر تلاحقني، تلاعبني ، أسمع همسها العذب تعيد عليّ أغانيها القديمة ... لي مع المطر حكايات كثيرة ... كان دوما رفيق دربي ، يلازمني عند ذهابي في الصّباح الى المدرسة البعيدة ويعود معي في المساء متعبا، لا هثا مثلي، مفعما بالف حلم ... كنت أردّ عليه بعض المقاطع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القصيرة التي حفظتها وكان يشدّني إليه بالحديث عن مغامراته الكثيرة في أراض بعيدة ... بعيدة !! «... تعجبني الأرض العارية العقيم ... أغمرها ماءا ، أسكب فيها بعضا من روحي ، أنتشي بها، وهي تتململ وتضطرب بداخلي ... أنصهر فيها ، تذوب في عشقا تصوّفا ، تستقيم غضّةً نديّة معطاء ، أرفضها ، أبتعد عنها ، أبحث عن أخرى يحتدّ تمنّعها في وجهي ويشتدّ»...« ... لا أريد أن أفقد لذّة الخلق عندي ...» ... أندهش لما أحسّه، فبأعماقي أشياء صغيرة وكثيرة تفرّمنّي ... أحاول تجميعها ... أبدًا لا تخضع لإرادتي ، فقط أستطيع التّغلب عليها ، ألفظها على الأرض وقد عبث بها المطر ورسمها أخاديد وحفرا ومغاور : هذه امرأة تجري فاتحة يدها ، تحاول الإمساك بشيء ما ... أحاول التّعرّف على ما تريد اللّحاق به ، لا أستطيع ... قطرات المطر تزيل من أمامي الصّورة ... وجه صبيّ صغير يبكي ... أحدّق فيه ... تضمحلّ الصّورة وتبقى الدّموع حية نابضة ، تسيل في صمت ، تأبى الغوص في الأعماق ، تسيل الدّموع بداخلي ، تغذّي أعماقي العطشى إلى شيءٍ مّا ... شيء أجهله ولكنّه يعشّش في ويعيش معي ... أسرعت الى إحدى الواجهات أحتمي بها، وقد ازداد المطر غضبا وثورة ، وددت لو أنّي أواصل السّير تحته بلا مطريّة...يملؤني وحيا وأشبعه صمتا ... أخرجت سيجارتي من دفئها ، أنعشتها رطوبة الطّقس ، أشعلتها ، لم يُكمل الدّخان بصدري دورته ، نفثته ، تمسّك بي ، لم يتكوّر ولم يتعال ، ارتدّ إليّ في عنف ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أحسسته سَاخطا ناقما ابتسمت ، نفثته ثانية دون أن ينعم بدفء صدري ، تبعثر بعيدا ، التصق ببلّور الواجهة ، رمقتني البائعة في صمت، وهي تطرد بقايا أنفاسي من ملجئها ... مشيت خطوات على الرصيف المقابل ، معلّقة إشهاريّة كبيرة اختلطت ألوانها وتشكّلت في تداخل غير متجانس ... ابتعدت قليلا عنها ، تملّيتها من جديد ، حاولت معرفة الظّلال وأبعادها ، دست على قشرة موز ... فقدت توازني أمسكت بأحد المارّة ، تركت المعلّقة تناديني ألوانها العارية، وقد توغّلت فيها وانتشيت ... سحّ المطر قليلا ... برزت الشمس دافئة محتشمة حبّات الرّذاذ المتخاثرة أغرت المارّة بالتّمتّع بها ... صبيّ صغير أفلت من قبضة أمّه وجرى فاتحا يديه، ورأسه إلى فوق ... وجهه الصغير الأسمر رأيت فيه وجهي قديما ... حتّى عيناه المشبعتان نخيلا في مساء خريف ممطر هما نفس عيني ... فقط كنت أردّد مع الصّحاب «عرس الذّئب ... عرس الذّئب ... » كنت أيضا أبتعد عنهم ... أحملق في البعيد حيث الأشجار الدّاكنة الملتفّة ، أعيش «عرس الذّئب » ... أحاول رسم وجه أنيس لعروسته ... كثيرا ما كانت تختلط صورتها بصورة إحدى الصّبايا، أو صورة أمّي ... أنزعج لمجرّد إحساسي بأنّ أمّي ستكون هناك بعيداً عنّي ... حتّى لو كان الذّئب في صورة أبي ... تأتيني أصوات الصّبية شجية كليمة ... ألتقط غصنا صغيرا ... أنكبّ على الأرض أخربشها خطوطا ودوائر وظلالا، يدور الجمع حولي ... «إنّه وجه امرأة ... ما أجملها ! ... «لا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هر وجد ذئب ماكر ، ما أشدّ بريق عينيه لا ... إنّهايد كبيرة ، غليظة ، قاسية ...» ويجرف الماء ما حفرت دون أن أستمتع بالتّعاليق ... فقط جرح عميق كالعصا، أو كالفأس ، لا يندثر، ولا تجرفه المياه ، هو كلّ ما يبقى من خربشاتي الباطنيّة ، إحساس عميق يجتاحني رغبتي في الرّسم على الأرض والماء يغسلها تعاودني شهيّة نابضة ، الاسفلت يغطّي كلّ شيء ، يحجب كلّ شيء أنفاسي تخنقني ، تفقد تواترها ، أخرجت سيجارتي الأخيرة ، تركت الدّخان يَلْهُو داخل صدري ، أحسسته يتكوّر ويتشكّل صوراً وخيالات، امتدّت خيوطه ... تمسّكت بالأعماق ، انسابت جذيرات عديدة سرعان ما علا جذعها ونمت أوراقها ، فإذا بها شجرة أزليّة، عملاقة، تماما كتلك التي أجلس إليها وأنا صغير، وأجلس إليها عند عودتي إلى القرية أثناء العطل المدرسيّة ، كم رسمت على أرضها وخربشت ؟!... أحيانا أجرح جذرا من جذورها، فلا يتألّم ولا يصرخ وإنّما يتعرّى أمامي منتشيا بالرّطوبة التي تنعشه ... أصبحت شجرة الخرّوب شجرتي ، لي وحدي ... لا أحد يقترب منها ، أو يدوس على خربشاتي أو ظلالي أو خطوطي و إن اقترب منها أحد فمحاولة منه ألتّمتّع بما يرى ... أصبحت محفورةً في الأرض واضحةً نابضةً ... جلست على المقعد الحجريّ بأحد الشوارع ، عادت إلى المدينة حياتها، وقد سلبها منها المطر منذ لحظات فأصبحت طاهرة غضّة وقد خرجت من توّها من حمّام طبيعيّ منعش ... على مسافة بعيدة منّي تجتمع عدد كبير من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشبان حول شجرة عملاقة ، يجتثونها ، يحرمونها من الحياة ، يحرمونني منها ، يحرمون أنفسهم من الجمال والظّلال، وقد حرموها من قبل أرضها الأمّ، فغطّوا أديمها بالاسفلت المحنّط، وتركوا لها حوضا صغيرا يسع جذعها المتمرّد ... هم يحاولون زعزعتها من منبتها، وهي شامخة صامدة ... تتحدّاهم وتتحدّى الاتهم وعتادهم ... أصابع يدي اليمنى تطول ... تمتدّ أخطبوطا كبيرا حولهم ... يضغط على رقابهم ... يخنق أنفاسهم ... يتململون ... يقاومون ... يمزّقون الخُيوط من حولهم ... تتلاشى ... تسقط أرضا أشكالا وظلالا ، وصورا ... في غير تجانس ... أنظر الى أصابعي المجدوعة في مرارة، وقد فقدتها يوم اجتثوا شجرتي، شجرة الخَرّوب العملاقة لاقامة محكمة بالقرية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ربيعة الفرشيشي.

إبراهيم بنسلطان

ذلك الصباح الصافي

«إلى عبد الرحمان»

منذ شهور، صار «عوّاد» ذو الجسم المائل إلى العرض والجبهة السمراء الممتدة كربى بلدي حيث تتراقص السنابل ويزهو الأقحوان وتشدو العصافير، لا يفارق هذا المقهى الفسيح ببابه الكبير المنفتح على الشرق مواجها تلك الدكاكين الصغيرة التي يفصله عنها ممر مغبر مترب بلون طين .. في باحته العالية تحلو الجلسات صيفا حيث تمرح نسيمات الصبح الأولى وتهب خفقات العشايا الساحرة، وفي زواياه الدافئة تلذ الأحاديث أيام الصقيع وبخار الأنفاس والكؤوس الذي يضبب زجاج النوافذ، ودخان السجائر يعانق السقف وحيث الحرفاء ولغطهم وسعالهم ترتفع في ضوضاء غريبة وقرقعة الكؤوس والقوارير والضرب على مناضد لعب الورق وصوت المذياع القديم المخرخش يصم الآذان ... إن قدمت صباحا أو مساء تراه متأنقا كعادته يجالس أصحابه يحادثهم أويلاعبهم ورقا ولا يبارحونه إلا حين تعتم الدروب ويشرع الندال في جمع الكراسي وترصيف المناضد والتنظيف ذا يكنس أرجاءها دانيا من الأقدام، وذاك بيده خرطوم ماء يرش أرضيتها والآخر يمرر خيشة مشدودة إلى مسّاح يعصرها داخل سطل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من حين لآخر ... كلما حول بعض جلسائه إثارة « شجون » الماضي أجابهم :

- لقد تركت السياسة للسياسيين.

يلتئم الجمع فيصفق بيديه الغليظتين رافعا رأسه هاتفا :

- الورق يانادل !

يدنو ويضع الورق وفراش «الكاوتشو» الثقيل وطبشورة صغيرة على المنضدة، فيخاطبه :

- انظر ما يشرب الحاضرون.

ينفق على أصحابه وجلسائه دون منّ كلما كان جيبه عامرا يلاعب الأول فيفوز عليه ثم الثاني ثم الثالث ... فيردّد مزهوا ساخرا :

- صرت بطلا في لعب الورق يا جماعة!

يرد عليه عبد القادر لامزاً معرضا :

- نعم بعد السياسة صرت بطلا في الورق !

فيواصل غير آبه بهذا التعريض :

- السياسة عندي لا تختلف كثيرا عن لعب الورق. المهم هو خلط الأوراق في كل مرة، والفائز من تبقى بيده في الآخر أفضل الأوراق .

الهتاف والصخب والقرع لا تنقطع :

- ارشم شكبّه !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- هاتِ قهوة، هاتِ شاياً.

- بدِّلِ الورق يا صبي.

- زد في صوت المذياع، حان موعد الأخبار ..

- كبُّوطْ !

- فريق الهلال (1) انتصر

- التعادل يكفينا للترشح للدور القادم.

- الحوت ثمنه نار.

-هات وَلْعةً للشيشة.

مروح منافس عواد بورقاته الثلاثة باسما :

- نصيبي هذه المرة «مجيرات»، البنات يعشقنني يا جماعة !

تدخَّلَ عبد القادر كعادته مازحا :

- لأنك جدّ وسيم !

فبرم المنافس شاربيه الصغيرين وتنحنح مخشخشا، وضرب صدره الذي نخره التبغ ورمق الحاضرين في زهو موسعا من عينيه :

-ما قولكم في هذا الجسم الرياضي ؟ !

- جسم قوي يهدّ الجبال !!

- يرحم فمك حتى ب... لكمة.

دفعه عوّاد بعد حين بيده وفمه ينفتح على ابتسامة عريضة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- هيا مَشْكي الكارطهْ».

ثم قال بعد ذلك، وهو يوزع الورق على اللاعبين المحيطين بالمنضدة يخاطبهم والمتفرجين :

- لا تظنوا أني الوحيد المفلس، أمثالي كثيرون بهذا المقهى!

ثم أومأ برأسه مشيرا إلى السيارة ..

رفع الجالسون عيونهم في احتقار نحو ذلك النازل من السيارة السوداء، وهو يدنو من باب المقهى متمائلا يدفع ركبتيه الكبيرتين كالجمل، بدا ضئيلا ضئيلا وهو يمر بجانب تلك النخلة الفارعة القائمة بالمدخل، ارتقى الدرجات وتقدم نحو وسط المقهى وحين مال مدبرا نحو إحدى الزوايا بدت عجيزته الضخمة في حركة دائبة كفردتي رحى :

- نعرفه ونذكر شرّ فعاله، ذاك آلـ... أيام كان يصول ويجول .. كان يظن نفسه قد بلغ أعلى المراتب، يمشي منتفخا كطاووس. ثم هوى كنجم أفل منذ آلاف السنين قبل بلوغه منزلة أصحاب البطون الكبيرة ففقد كلّ زهو وعجب ... انخرط ذاك الصامت في الحديث متأففا :

- كان يظن كل المفاتيح صارت بيده حتى مفتاح السجن، هو السياسة والنقابة والأمن ،،، قيل حركته الغيرة مرة على قريته وأهلها الطيبين فطلب من أولي الأمر - كأنما لا ينقصهم غير طلبه هذا - :

- ابنوا لناسجنا بهذه الجهة !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم أجهر في فترة توتر عمالي : «إن الإضراب جريمة !»
(وكأن الاستغلال والعسف فضيلة !) .

حين انتفض الشعب رافضا الزيادة في سعر الخبز في شهر العواصف لبدَ في بيته مرتجفا وبعد أن سالت الدماء أنهارا وثكلت أمهات وفجع آباء وترملت نساء وروع الأطفال و«استتب الأمن» كما قالت مذيعة الأنباء بالتلفزة حين أطلت علينا بوجهها الوسيم، خرج مع رئيس فرقة مكافحة الشغب يطوفان بسوق البلدة يرشده إلى هذا «إنه مخرب» و«هذه مشوشة» و«تلك زوجها شيوعي» و«ذاك عنصر تحريض وبث الفوضى» ..... آه يا زهور بلدتي الصغيرة كم وشى بكم مع أمثاله وضغط على آخرين حتى يلينوا فإذا أنتم قلاع صمود .. وحين هوى نجمه صار من رواد هذا المقهى يجالس أشباهه ويقدم نفسه لمن لا يعرفه :

- فلان، عضو مجلس .. سابق !

علق عبد القادر متنهدا :

- لكن أموره رائقة وكلمته لم تزل مسموعة في بعض المكاتب !

- ومن قال : إن حبال الوصل قطعت ؟ !

عاد عوّاد يشد على الورق ضاغطا وهو يقول معتزا متحسرا :

- آه ياشباب ! كم خضنا معا من معارك ودخلنا مواجهات وأفسدنا للخصم حسابات ... دعونا إلى وحدة

العمال والشغل للعاطلين وأن العرب أمة واحدة من المحيط إلى الخليج، ونزلنا إلى الشارع هاتفين بسقوط الاستعمار وحياة فلسطين .. تذكرون يوم ترشحنا للمجلس البلدي .. لولا إسقاطهم القائمة لأضأنا شموعا كثيرة في ليالي بلدتنا الطويلة !!!

ثم يواصل معتدا :

- لو استمع الآخرون إلى تحاليلي الرصينة ومواقفي الصائبة لما عشنا نكسة في هذه البلدة إثر كل انتخاب !

أجابه صديقه «ثابت» وثغره يفترّ عن نصف ابتسامة :

- تواضع ياعوّاد، لكلّ نصيبُه من الحقيقة والأخطاء نتحمّلها جميعا !..

فيلفظ منفعلا :

- ترى هل استفدنا من تجاربنا وأخطائنا ؟ !

ثم يعقّب راجيا :

- آه لو تتحد كل قوى النور !

حين كنّا نسأله في تلك الأيام البعيدة.

- لم لم تتزوج يا عوّادُ وقد كدت تطوي من عمرك عقودًا أربع ؟

كان يجيب :

- لقد تزوجت السياسة !

أما في هذه الأيام فصار يقول :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- همي الآن هو العمل والمقهى ومجالسة الأصحاب حين يضايقه البعض سائلينه عن سبب تركه السياسة، يضع الورق متمهلا ويردُّ في حرقة :

- دعونا ياناس ! لا تنكِؤوا الجراح !

ثم يصرح في أوقات أخرى :

- مشكلة بعض محترفي السياسة أن هوائياتهم موصولة إلى بعيد، من هناك يوجهون، وإن اعترضوا يضغط عليهم فينسحبون من الساحة صامتين.

(تنشق نسيمَ بلادك، وعالجْ همومه من ملامستك لها ولا تنتظرْ لمشاكله حلاً قادما من بعيد، «أرضنا ليست بعاقر » لكن «لا تغلقوا نوافذ بيوتكم عن ثقافات العالم» «فالعالم أرحب أرحب»).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم يعود إلى اللعب مدندنا :

- ورق ! ورق ! عاش الورق.

..... حتى كان ذاك الصباح الصافي من شهر «أوت» الساطعة شمسه المتسربة أشعتها دافقة من النوافذ المشرعة عندما ولج أحد خلاّنه المقهى ودنامنه ومن محيّاه تشرق أنوار وفي عينيه تمور أحلام، وربت على كتفه بلطف :

- ألم يبلغك النبأ ؟!

- ماذا ؟

- صبّح العراقيون اليوم في الكويت ياعم.

تهللت أسارير وجهه واتسعت عيناه، ورمى الورق،

ترك آخرون اللعب والتفتوا نحوه، تحلق البعض هنا وهناك ، تبودلت الأخبار وكثرت التعاليق» هتف عواد وهو يضرب الطاولة بجمع يديه :

- بدأ الصحيح يا شباب الغرب الأسود سيحشر أنوفه ودبابته وزبانيته وسيحرك بيادقه، سيجثمون على نفط الخليج، سيحاولون تدمير العراق ... آن الأوان، لم يعد هناك مجال للورق ولن نظل في مقهى الإفلاس هذا ! ...

انتصب واقفا وخطا خارجا، بلغ الباب فسده بقامته العريضة المتينة، نزل درجات المقهى يتبعه البعض، حين بلغوا النخلة كانت قاماتهم المديدة تضارع سموقها» اتجهوا نحو السوق المختنقة حرفاء وسلعا صخبا،، انضمّ إليهم آخرون .. بدأ جمعهم يكبر شيئا فشيئا ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إبراهيم بن سلطان

---

(1) الهلال الرياضي بالرديف

فؤاد سيّاله

- أم دارب -

حينما رأتها تغادر شقتها لاول مرة بعد ثلاثة اشهر من التقوقع والاحتجاب، لم تتردد السيدة «وداد» في بسط ودّها على الساكنة الجديدة التي قطنت الشقة التي تعلوهم مباشرة في الطابق الثالث. ورغم انها لم ترجع لها التحية عندما التقت بها في مدرج العمارة هذا الصباح إلا أنها لم تلمس منها مايوحي بالصلف أو الكبرياء، فقد لمحت وجهها بريئا كالطفولة ، حالما إلى أبعد حد، وان كان يشوبه، في أغلب الفقرات أثر حزن تحاول المرأة جاهدة أن تفتّته عندما تلتقي بأحد ساكني العمارة حتّى تبدو متماسكة مطمئنة. وفي المرّة التالية أشارت المرأة للسيدة وداد إشارة عاجلة تحييها بيدها عند هبوطها السلم، ولم تجد الاخيرة ما ترد به عليها سوى ابتسامة ودودة أودعتها كامل شعورها الصادق بالصفاء والمحبة .. ورجت في نفسها أن تتوطّد بينهما صداقة حميمية وتشعر السيدة بأنه سيتحقق ذلك ...

قابلتها اليوم على السلم .. لقد ملت إليها وأحسّ أننا سنلتصق ببعضنا أكثر من تصدّق هذا ؟

قالت ذلك لزوجها على مائدة العشاء وعندما استوضحها عمّن تتحدّث أجابت على الفور :

- الجارة الجديدة. أم ذاك الطفل .. إني اشعر كأني أعرفها منذ زمن بعيد .. لا بل لكأننا ولدنا معا ..

وضحكت وهي تعيد وضع الملاعق على السفرة :

- الحقيقة انها امرأة تدخل القلب .. يجب أن نفكّر في استضافتها يوما ما .. أليس كذلك يا ابراهيم ؟

فأجابها السيد ابراهيم وهو يهم بالوقوف لينسحب خارج غرفة الأكل :

- ليس قبل أن نعرف أصلها ومنبتها .. لن نركن إلى من نجهله ونجعل إيرادنا مدخلا لقليلي الأصل ..

في فجر اليوم الموالي، صحا السيد ابراهيم على صراخ ابن الساكنة الجديدة ولمّا نظر إلى الساعة بجانبه دهش ان وجد عقاربها تحبو في تمام السابعة اي في الوقت الذي اعتاد ان يسمع فيه صوته وتعجّب هل كان يحمل هذا الولد منبها ذاتيا في داخله يضبط عليه انغام استفاقته ؟ وقد اوقف اذنيه برهة يرنو لعلّه يسمع صوتا جديدا يدرك من خلاله عودة الوعي الى جارتهم الجديدة ولمّا استعصى عليه ذلك، تدحرج من على السرير واتجه بخطاه الى دورة المياه وهو يترنّم باحدى اغاني فيروز الشهيرة...

للرجال وساوسهم حين يبتعد عنهم الحظ. وللنساء ايضا أحلامهن الميّتة التي تستقر في قعر الامنيات والسيدة وداد امرأة لا كبقية النساء اصيبت بالعقم وهي صابرة .. رغبتها في ان تلد لا تقاوم وما تفتأ ترفع كفيها الى مملكة قادرة ان تحقق فيها الرغائب .. بتنظيم الولادات تحلى الحياة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

.. شعار يرفعه التلفاز إليها كل مساء وتعقّب عليه السيدة وداد بقولها :

- انهم يعرفون الذي نبتغيه ونحن نعرف ماذا يريدون .. خمسة مليارات من البشر ماذا سيحدث للإنسانية لواضيف إليها واحد .. ثم تهمس راجية : يارب .. يارب .. وتمسح في خاتمة كل دعاء وجهها براحتي يديها توكيدا وتبرّكا .. ليت لي منهم تسعة او اكثر لن أتخلّى عن الحياة بسببهم ولو قاسمتهم شطر رغيف .. وتمرّ السنون سراعا والأمل يطويها طيا .. ويفترس الزمن ابراهيم فيبسط على زوجته همومه :

- وداد ماذا لو نتّخذ ولدا ..

وتفاجأ المرأة :

- ربيب ! لن يكون هذا ابدا .. رحمى ستغشاه رحمته وسيتفجّر بنات وبنين .. هي مسألة وقت لا أكثر ولا اقل ..

تتوقّف برهة ثم تضيف بصوت متهالك :

- أم كنت تظن أني عاقر .. فإذا اردت ان تتزوج فأنا سأبصم لك بالخمسة ..

ثم تروح تعاقبه حتّى يكب على رأسها مستسمحا ايّاها ..

كان السيد ابراهيم يعرف انه لا يمكنه ان يأمل في اي نتائج طبية، عرف ذلك بعد ان اجرى الفحوص اللازمة التي ساقته إلى هذا الاستنتاج فالطبيب يشك في وجود عقاقير تزيل اصابة العقم حتى ولو كان ذلك خارج البلاد .. وكتم عن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

زوجته الخبر .. كان يرجئ ذلك إلى ما بعد المحاولة التي ينوى القيام بها سيقول لها كل شيء. سينهاها عن جعل القدرة تحتها وسينسف عروق السالوس من امامها.. لن تيبسه ابدا ولن تطعمه من دشيشة الشعير المسوس .. مسكينة وداد كم مرة وجدها تتحمم بماء الحلبة مطبوخا طبخا عظيما وحين يسألها مندهشا عمّا تفعل تجيبه وهي تدهن ظهرها وجوفها :

- سأحمل بإذن الله.

فيصمت متألما .. كيف لو تعرف ان العقم ليس فيها وإنما .. يطرق برأسه ويروح في تفكير حاد .. لقد خان زوجته ولا يدري كيف امكن له ان يخفي الامر عنها طيلة هذه المدّة .. بل كيف سوّلت له نفسه ان يداوم في خداعها .. أعاد الشريط في ذهنه من البداية، فتذكّر السيد ابراهيم كل ذلك قبل اشهر وهو يسير في اتجاه دور الاطفال .. ولام نفسه بشدة على جرأته تلك دون ان يعدل عمّا ينوي فعله .. وكان كلّما اشتدت نفسه عليه وألهبته تقريعا يمنيها بالخاتمة السعيدة التي سيصل إليها في يوم ما .. تماما كما يحس الآن وهو يغرف الماء بيديه ويسقطه على وجهه يغسل به اطرافه ثم يأخذ المنشفة وينشف حبيبات الماء من على جلدته .. دماغه في الاثناء لم يهمله ساعة واحدة وزوجته لم يسمع لها حسّا ربّما تكون قد انزوت في احد اركان الغرفة تفعل شيئا ما .. ولكنه الآن يترنم باحدى أغاني فيروز الشهيرة حتى يخفف قليلا من ضميره «الحي »! ..

كانت السيدة وداد في ذلك الوقت قد صعدت إلى فوق السطوح تزمع نشر ادباشها هناك فهي قد اعتادت ان تغسل ثوبها مرّة في كل اسبوع وكانت عند مرورها بشقة الجارة قد سمعت صراخ الطفل ثم في تلك اللحظة نفسها ينفتح الباب وتطل المرأة ، وبيدها سطل صغير جمعت فيه قطعا مغسولة من الكتاتين تنوي هي ايضا نشرها فوق السطوح .. حيّتها المرأة فردّت السيدة عليها وهما يرتقيان السلالم جنبا الى جنب الى آخر مدرج في العمارة .. كانت فرصة للتعارف وربط الصلة تحدثتا كثيرا .. عرفت السيدة وداد ان الطفل في سنته الأولى وان والده مهاجر في فرنسا. هكذا أخبرتها المرأة – وتدعي مبروكة – ولم تتوسع في التفاصيل فاكتفت السيدة وداد بهذا وغيّرت حديثها لتنسجه حول الطفل :

- يبدو انه شيء متعب تربية الصغار .

فأجابت المرأة وهي تعلّق ثوبا فوق حبل الغسيل :

- نعم ولكنه تعب لذيذ .. ألم تجرّبي بعد ؟

تنهدت السيدة وداد ثم قالت :

- ياليت .. فأنا لم اكتو بهذه الامنية الغالية .. كل شيء بالمكتوب. ثم تبتسم بمرارة وهي تضيف :

- لم اترك وسيلة لم ألتجئ إليها ولكنه القدر قد اوصد ابوابه فكل من عرضت عليه حالتي ادّعى اني لا احمل اية معيقات .. والنتيجة غائبة .. لست ادري لماذا .

مالت إليها مبروكة بكل حواسها ثم سارت ووقفت قدّامها تلفحها بنظرات في وجهها وقالت مستفسرة :

- هل استشرت ام دارب ؟

فزمّت السيدة شفتيهاوقد بحلقت في وجه مبروكة محاولة ان تفهم هذا الاسم :

- كيف هذا ؟؟

- اسمعي .. قد يحدث وان تصاب المرأة بالعقم هذا طبيعي إلا ان الصورة التي تقع لواحدة تختلف عن الاخرى .. فهناك مثلا من تكون عندها اصابة دائمة غير مفارقة . وهناك من تجدها ظرفية غير ملازمة ففي هذه تأخير للحمل وليس هو عقم حاصل .. وأنت ربّما تكونين من هذا النوع .. فعليك إذن ان تستشيري ام دارب كي تعرفي ذلك فأي فائدة من الحرث في البحر.

تطيّرت السيدة وداد من العبارة الاخيرة التي نطقت بها مبروكة وتشاءمت كثيرا من نتيجة اللعبة ومخلّفاتها - ورغم ذلك فقد قبلت ان تقذف نفسها في هذا الخيار وهمّت ان تسألها عن السبيل إليها والشروط الملزمة لتحقيق غايتها ولكنها تذكّرت فجأة أنها اطالت المكوث وان زوجها لا شك ينتظرها علي السفرة .. فنطّت بسرعة قائمة ثم اتجهت على عجل لتنزل إلى شقتها وهي تقول قبل ان تختفي:

- آه .. نسيت الرجل لم اضع له إفطاره سأنزل إليه وأشوف حاجاته .. ثم تداركت قبل ان تختفي تماما :

- يسرّنا ان تشاركينا العشاء الليلة، سنكون في انتظارك فلا تنسي ذلك .. اعملي جهدك كي تأتي رجاءً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وغابت عن انظار مبروكة. ولكنها عندما التحقت بالبيت وجدت ابراهيم قد خرج لم يلحظ السيد إبراهيم إلا وهو ينعطف في اتجاه خاطئ عن المؤسسة التي يعمل بها.. كانت ساقاه تقودانه كرها إلى دور الاطفال وفكره منشغل بشتّى الافكار التي تحمل وساوسه .. لقد سبق ان عرف الطريق إلى هنا، وها هو الآن يتوقف بالقرب من البوابة .. لم يسأل هذه المرة عن مكتب المديرة فهو يعرفه ولم يعد بحاجة إلى من يقوده إليه .. دلف السيد ابراهيم إلى داخل الدار ومنها عبر إلى مدخل بناية صغيرة منتحية في جانب منفصل وهو يشق جماعات الاطفال ويلتفت إلى كل الاتجاهات مندهشا بالزي الموحّد الذي يرتدونه فهم اشبه ما يكون بتلامذة المدارس يرفلون في مناديلهم الزرقاء لاعبين صاخبين اقترب من المكتب دون أن يعترضه وطرق على بابه. بأدب سمع صوتا انثويا يأذن له بالدخول فأدار مقبض الباب ودخل .. كانت المديرة تجلس وحدها في ذاك المكتب وقد انهمكت في تصفّح بعض الملفّات وصياغة الوثائق .. حيّاها ابراهيم مدّت إليه يدها وصافحته ثم اشارت إلى مقعد قريب داعية اياه للجلوس :

- السيد ابراهيم الطاشوري، أليس كذلك ؟

- نعم ياسيدتي، لقد جئت لأطمئن على طلبي .. وارجو ان يكون جاهزا.

نظرت المديرة في الملف الذي امامها وكأنها تفكر ثم رفعت رأسها وخاطبته :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- امازلت مصرّا على تبنّيك طفلا ؟

فامتعض ابراهيم من سؤالها وحافظ على هدوئه وصمته ولم يجبها بشيء فاستدركت المديرة قائلة :

-اقصد هل تمّ الاتفاق بينك وبين زوجتك ؟ فلا تنسى انها هي التي ستسهر على تربيته .. ونحن لا نريد ان يكون ابننا سببا لخلافات بينكما . وكذلك لا نريد في الآن نفسه ان يعيش في جوّ مشحون فتزداد آلامه ..

فمسح ابراهيم براحة يده على جبينه وهو يقول بصوت خافت :

- الحقيقة اني لم اخبرها بهذا الامر : فهي حتما لن توافق لو عرفت ذلك وأنا تائه لا ادري ماذا افعل بالضبط.

فقامت المديرة من مكانها ولفت حول الطاولة العريضة ثم توقّفت قبالته وقالت :

- نحن آسفون لعدم تلبية رغبتك على الاقل في الوقت الحالي ، فلا يمكننا ان نطلق الاطفال دون ضمانات وابسطها الراحة النفسية لهم. عد إلينا بعد اسبوع فربما نجد حلا يخرجنا من هذا التردد.

فنهض السيد ابراهيم متثاقلا .. صافحها وانصرف كئيبًا .

* * *

في المساء، مازح السيد ابراهيم الطفل ولاعبه بلطف فقد كان يرفعه عاليا ويدوح به فيمد الصغير اصابعه القصيرة إلى خدّي الرجل وكأنه يريد ان يتمسّك بهما خوفا من السقوط ولم تمض فترة حتى استأنس به الصبي وألفه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بسرعة فصار يحبو إليه ويتشبث بتلابيب ثيابه .. حدث ذلك فيما كانت السيدة وداد وضيفتها تقومان بجمع الصحون واعادتها إلى الخزانة بعد ان تناولوا الطعام. ألحت مبروكة على ان تساعدها في هذا العمل ولم تمانع وداد بالمرة فهي تريد ان ترفع الكلفة بينهما وتغتنم وجودهما لوحدهما على انفراد لتزيدها معرفة بأم دارب .. قالت مبروكة موضحة السبيل إليها :

- هناك ، في مكان تحت الجبل بالقرب من «حمّام سيّالة» ستجدينها عاكفة في معبدها يؤمها الكثيرون .. فتطهّرى واحملى معك صغيرا واحرصي على ان لا يفارق حضنك فهي لا تظهر في الغالب إلا للصغار .. اي حبا في الصغار .

فتحيّرت المرأة من اين ستأتي بهذا الولد وهي الغريبة في هذه المدينة - ثم مالبثت ان وقفت على الحل .. ستصطحب معها مبروكة وبذلك يكون ابنها مرفوقا معها .. ولكن هل تراها توافق ؟. تشجعت وداد وسألت مبروكة راجية :

- هل ترافقينني إلى هناك ؟

فارتبكت مبروكة وترددت كثيرا قبل ان توافق اخذا بخاطرها :

- سأكون معك، فافعلي كما امرتك واختاري اليوم الذي يناسبك ..

- غدا مع الفجر ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قررت وداد بدون تردد :

- سأكون مستعدة اذن، فمرّى علي.

اعلمت وداد زوجها في الابّان فوافق بما انها فكّرت في غير الطبيب ونام ليلته تلك طويلا تقلب في نومه حتى اكتوى جنباه .. تمدّد .. تكوّر .. اخذ الاوضاع جميعا ولكن الليل طويل على غير ما ألفه .. بدا له انه يتمطط اكثر من اللزوم .. السابعة لم تأت فالطفل لم يصرخ بعد .. دس رأسه بطراوة تحت اللحاف وانكمش ثم لم يصبر على وضعه فكشف رأسه ونظر الى الساعة فوق الطاولة الصغيرة ثم قفز بسرعة :

- ياللعنة، نسيت انهم سيخرجون باكرا.

كانت الساعة تقارب العاشرة ولم يعد بإمكانه ان يلتحق بعمله لقد فعلها الصغير وغالطه غفر الله له .. بدأت بلادته تفتر شيئا فشيئا وحماسه يعود إليه استجمع انتباهه وقرّر الالتحاق بزوجته مادام اليوم قد نُقِبَ ..

كانت وداد متربعة امام مغارة سوداء على حافة الطريق حين اطل ابراهيم منهكا من التعب يجر قدميه جرّا وما ان لمح شجرة بالقرب من المغارة حتى سارع يتكىء عليها موليا وجهه في اتجاه وداد - وهذا الصبي لم يفارق صدرها منذ خروجهما من المدينة .. يطوّق عنقها ويتمسّح بضرعها كالمتشهي لا متصاص الحليب. فتشدّه وداد إليها .. ما ابلغ حبك للاطفال تهمس لنفسها في سرّها.. ثم تخرج من كيس بجانبها قطعة من الخبز تدعكها في كف الصغير وتلقى بها

في المغارة وهي تقول كالمبتهلة :

- «يا ام دارب اعطيني باش نحارب راو الراجل هارب»

فيبتسم ابراهيم عند سماعه قولها ويقول لها مازحا :

- أنا لم اهرب ياوداد وها أنى أتيت لمؤانستكن فعلا.

فيتضرج وجهها بحمرة الخجل وتبقى شاخصة في المغارة لا تحوّل نظرها عن التجويفة التي بداخلها.

كان الكهف الصغير عبارة عن صخرة نائية على جنب الطريق تفجرت من تحتها عين صافية رقراقة فاصطدم ماؤها الحلو بالصخرة فثلمها والتهم قشرتها. تشققت وتوسّع الماء فيها حتى بدت على الشكل الذي هي عليه الآن .. يملأ المارة منها او عيتهم ويستريحون قربها .. ولموقعها الجميل بني على بعد امتار منه حمّام انزوى تحت هضبة عالية يأتيه الماء ساخنا سخونة طبيعية .. ويأتيه اهل هذه القرية للتداوي والغسل .. اما الطريق فقد كان يتوقف امامه مباشرة ولا يتعداه. ودفعت الضرورة إلى اقامة بعض الحوانيت لبيع لوازم الاستحمام والمواد الغذائية التي تناسب امكانيات اهل القرية واحتياجاتهم فاكتمل جمال الطبيعة مع جمال الحياة المدنية.

كانت قطعة الخبز التي رمتها السيدة وداد في المغارة مازالت تطفو فوق سطح الماء يدفعها التيار في مساره فتصطدم بجدار الصخرة ثم تعود إلى وسط الماء تلك اللحظة خرجت سلحفاة ماء من شق في الصخرة اشتمت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رائحة الخبز فزحفت نحوها وانقطع تنفس المرأة ثم تهللت اساريرها وهي ترى صغار السلحفاة يطلون من الشق ثم يعودون إلا اثنين منهم يندفعان خلف امهما .. ولكن احدهما يتوقّف في نصف الطريق ويستمر الآخر في العوم نحو امه ..

- تعال وانظر يا ابراهيم .. نادت وداد زوجها - هذه ام دارب وهذا الذي بجانبها هو الصغير الذي سيهبه الله لنا .. أمّا ذاك الذي ركن إلى الجانب الآخر فهو آه .. نسيت بماذا اوّلته مبروكة ربما فسّرته بالمولود الذي لا يعيش إلا بالانثى التي سيرزقنا بها الله .. لم اعد اذكر ليت مبروكة معنا فتعيد تأويل هذا المشهد فقد تكرر لي اكثر من مرّة.

عندما سأل ابراهيم مستفسرا عن مبروكة :

- بالمناسبة، اين هي اني لم أرها معك ؟

فأجابت وداد دون ان ترفع عينيها عن ام دارب :

- لقد دخلت الى الحمّام. قالت انها لن تغيب طويلا وهاانها تأخّرت كثيرا .. فجأة.، بكى الطفل فنهضت المرأة وقد قطعت كلامها وراحت تسيربه .. تهدهده .. ولكن بكاء الطفل ازداد قوّة .. فاستدارت وداد واتجهت الى بقعتها الاولى لتفتّش في كيس هناك عن الرضّاعة .. ولمّا وجدتها وضعتها في فم الصغير فسكت .. لم يكن الصبي قد اعتاد على حليب الام على ما يبدو فقد امتصّ الرضّاعة بشراهة وبدأت الفقاعات تطقطق من شفتيه ويسيل الحليب على ذقنه..

الوقت يمرّ بسرعة ومبروكة لم ترجع بعد :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- لقد نسيت نفسها في الحمّام.

اسرّت وداد لزوجها الذي كان يجمع الحاجات التي أتوا بها، سأذهب لاستعجلها ..

ثم انطلقت وطلبت من الحارزة ان تستدعى المرأة الشابة وأدلت لها بأوصافها .. فدخلت الحارزة المقصورة مكثت بها برهة ثم طلعت لتخبرها بأنه لا توجد امرأة بهذه الاوصاف فساور وداد القلق وارادت ان تتأكد بنفسها فاندفعت تقتحم المقصورة دون اذن من احد وكشفت عن النسوة نقلت نظراتها من واحدة إلى اخرى ولكن مبروكة لم تكن بينهن ..

ارغى ابراهيم حين علم بالخبر إلى اين يمكن ان تذهب ؟ هل تكون قد عادت الى بيتها لضرورة حادة ؟ هناك كانت الشقة خالية ولا شيء يدل على حياة فيها .. طرقا الباب ولا من يجيب .. بكى الرضيع وسكت .. بكى الطفل وسكت .. بكى الصبي وسكت .. ثلاثة ايام مرّت ولم تظهر مبروكة .. صرخت وداد : الفاجرة ألقت بابنها عندنا وفرّت .. هربت خشية الفضيحة .. بدأت الوساوس تنتابهما فاضطر ابراهيم عندها الى ابلاغ الشرطة بعد هذا الصمت الذي كان يأمل فيه ان ترجع ولكن الامل قد طال وفتر في قلبيهما .. حملت وداد الصبي معها لا بد ان تسلّمه الى المركز فهو ابن زنا .. ثمرة الخطيئة علقت بهذا الطفل البريء .. فماذنب الصغير ان اخطأ الكبير هؤلاء كالورود لا نخاصمهم بجريرة البستاني .. أبقت وداد الطفل بين يديها وتقدّم ابراهيم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يشرح لرئيس المركز الاسباب التي دفعته الى مقابلته .. فسرد عليه الذي حدث فالتفت الضابط الى الصبي تأمّله طويلا ثم اخذ يسجّل ببرودة تامة شيئا ما في سجلّ خاص وعندما انتهى استدعى عونا وامره بأن يأخذ الطفل من المرأة ويرسله إلى دور الأطفال .. فسارع العون إلى تنفيذ المهمة وانتظر ان يتسلّم الصبي لكن وداد حافظت على احتضانه .. رأته لاهيا ساكتا يعبث بأكمام فستانها وكأن شيئا لا يحدث له فرق قلبها وحن .. انحنت تقبله وهي تقول في حزن ورثاء للصغير :

- هل تنوون حقا إرساله الى الملجأ ؟

فأجاب الضابط مبتسما :

- ليس لنا من سبيل غيره، إلا اذا كان لديك خيار آخر ..

تطلعت وداد الى زوجها وكأنها تستأذنه في ما ستقوله ثم راحت تقول :

- هل لك ان تتركه معنا نربّيه ونستبنيه، فهو سيسعد عندنا وسيلقى لدينا العطف والحنان ؟

فقام الضابط من مقعده وتمشى مفكرا فيما ساد الجميع الصمت يرقبونه ويترقبون قراره . وحوّل العون بصره من وجه المرأة إلى وجه زوجها يستشف منه بريق السرور الذي احاط بعينيه عندما اعلن الضابط عن موافقته. ولا يدري أيّا منهما اكثر سرورا الرجل ام زوجته.

اختفت مبروكة وتعلّق الصبي بالاسرة الجديدة. ابن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مبروكة هو الآن ابن السيد ابراهيم وزوجته . عجيبة هي الدنيا، غريبة هي احداثها تعطي الخير لمن يأباه وتمنعه عمّن يطلبه زينة الحياة الدنيا ترمى في المزاد، تلقى في شوارع المدينة موؤودة مغفلة .. آه لك يادنيا .. صبرى عليك ياحياة .. زفر السيد ابراهيم وهو يميل إلى دور الاطفال ويحدّث نفسه وكأنه مصروع فاجأته نوبته .. كان ينوى ان يزف البشري للمديرة يعلمها بما دبّره الزمان .. وداد التي تنفر من معانقة ابناء الزنا تحضن صبيا منهم ! لا حاجة له اليوم بآخر، سيلغي الاتفاق فقد حصل المقصود .. دخل على السيدة المديرة فرحبت به بصورة مبالغ فيها :

- اهلا بك ، سيد ابراهيم ، جئت لتطمئن على طلبك أليس كذلك ؟ لقد رأينا ان نلبي رغبتك الساعة ولن يعترض احد على ذلك .

صمت السيد ابراهيم محتارا كيف يبدأ الحديث ثمّ استجمع شجاعته وقال للسيدة المديرة :

- عفوا، أنا آسف لابلاغك بأني قد اسقطت الموضوع فهناك امور جديدة قد جدّت .. وقصّ عليها الواقعة فابتسمت المديرة وقد اخذت بسماعة الهاتف وهي تقول :

- تهانينا الحارة ، لا بد ان نحتفل بهذه المناسبة.

ثم بدأت تتحدث في الهاتف ، آنسة ليلى هاتي ملف الصبي حسام بسرعة لو تسمحين .. اقفلت السمّاعة وعادت تتحدث إليه إلى ان سمع طرقا على الباب ودخلت فتاة عندما رآها السيد ابراهيم قفز واقفا وتقهقر إلى الخلف

فاغرا فاه :

- أنت ؟!

نظرت الفتاة اليه في لا مبالاة وتقدّمت بخطى ثابتة إلى وسط المكتب ثم مدّت الملف إلى المديرة فتسلمته منها واشارت إليها مخاطبة السيد ابراهيم :

- الآنسة ليلى، مربية عندنا. وهذا الملف هو اوراق ابنكم حسام .. أهنئك ..

ومدّت يدها تصافحه وربتت على يديه وهو مذهول ينظر من حين لآخر إلى ليلى ويتمتم : مبروكة كذبة مدبّرة .. غير معقولَ .. غير معقول .

فؤاد سيّاله

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com